عَناقِيدُ البَيانِ

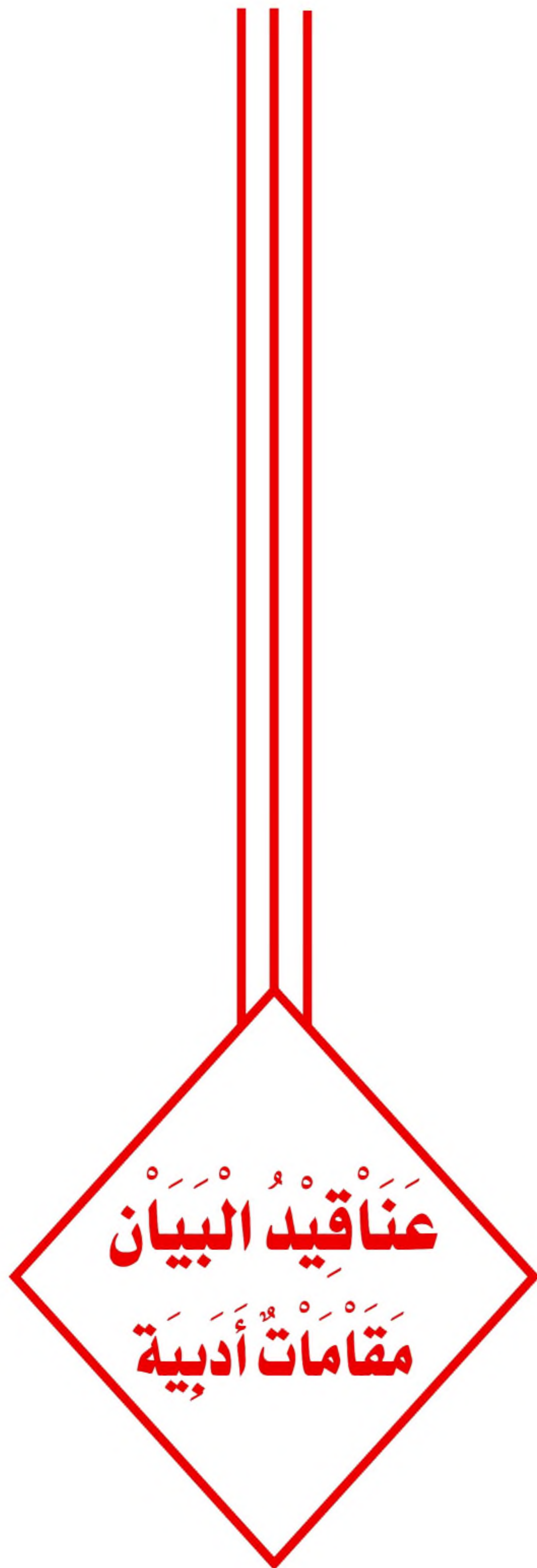
مَقاماتٌ أَدَبِيَّة

تَأْلِيفُ

د. عبدُ اللهِ بنُ عبدِهِ العواضيّ



غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing


عَنَاقِيْدُ الْبَيَانْ
مَقَامَاتٌ أَدَبِيَة

العنوان: عَنَاْقِيْدُ الْبَيَاْن – مَقَاْمَاْتٌ أَدَبِيَة.

تأليف: د. عبد الله بن عبده العواضي.

الصفحات: (167 صفحة).

الطّبْعة: الأولى، 1444هـ– 2023م.

قياس القطع: 17× 24.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.



إخراج فني وإلكتروني:
هشام بن حسين الأهدل



عَنَاْقِيْدُ الْبَيَاْن

مَقَاْمَاْتٌ أَدَبِيَة

تأليف

د. عبد الله بن عبده العواضي

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدِّمة

اللهمَّ لك الحمدُ على نعمةِ البيان، ومعرفةِ القرآنِ واللسان، ولك الحمدُ على نعمةِ الفراغِ والعافية، وجميعِ نعمِك المتواترةِ الضافية[1].

ونعوذُ بك اللهمَّ من زللِ الأقدام، وسقطاتِ الأقلام، وضلالِ الكلام، وظلامِ الأفهام.

ونستغفرُك اللهمَّ من تقصيرٍ في المراضي والطاعات، وإطالةِ حبلِ الهوى في مراتعِ[2]، الخطيئات، وضعفِ النهوضِ إلى التوبة، وقوةِ الإصرارِ على بطء المبادرةِ إلى الأوبة.

ونسألُك اللهمَّ توفيقًا يسدِّدُ الأقوال، وتسديداً يصلِحُ الأعمال، ومعرفةً تنيرُ المجاهل[3]، وتعصمُ من سفاهةِ الجاهل، وتحمي من مصافحةِ الغرورِ والكبر، والعُجبِ والفخر.

ونسألُك أن تجعلَ نتاجَ أقلامِنا من خيرِ ما نذخرُ لمعادِنا، ونفرحُ به يومَ فاقتِنا، ولا تجعلْ ما نسطِّرُ حُجةً لمسرف، ولا موردًا لمقترف، ولا ملهاةً عن

(1) السابغة.

(2) الْمواضع يُرعى فِيها.

(3) الصحراء المهلكة لا يُهتدى فيها.

فضيلة، ولا مدعاةً إلى رذيلة.

وصلِّ اللهمَّ على أفصحِ الأوائلِ والأواخر، مَن تزيّنتْ ببلاغتِه المجامعُ وأعوادُ المنابرِ، وخضعتْ لبيانِه هاماتُ البلاغةِ والبيان، وسطعتْ شمسُ تبيانِه على آفاقِ الزمان، نبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ صلى اللهُ عليه وعلى آلِه الطاهرين، وصحابتِه الأكرمين، وزوجاتِه الطاهراتِ أمهاتِ المؤمنين، وسلّم تسليما.

أما بعد:

فإنّ علمَ الأدبِ فرعٌ من دوحةِ علومِ العربية، التي هي من أرقى العلومِ الإنسانية، وهو علمٌ طيّبُ الجنى، سامقٌ[1] السّنا[2]، حسنُ الأثرِ على النفسِ والإنسان، والعقلِ واللسانِ والجَنان، ومعراجٌ إلى سماءِ الجمال والمُنى، وقاربٌ إلى شطآنِ الراحةِ من العنا، ومصباحٌ إلى معرفةِ أسرارِ السنةِ والقرآن، ومكنوناتِ الحُسنِ في نصوصِ اللسان، وهو لسانُ النفسِ الذي يُعرِبُ عن خباياها، والمعبِّرُ عما يستكنُّ[3] في طواياها[4].

ألا وإنّ من أجلِّ فنونِ الأدب، وأجملِ ما أنتجه بلغاءُ العرب: فنَّ المقامات، التي تزهو بها الطروسُ[5] والصفحات.

---

(1) مرتفع

(2) العلو.

(3) يستتر.

(4) ضمائرها.

(5) الصُّحف.

تُبنى تلك المقاماتُ من نسجِ الخيال، حاكيةً في أحيانٍ حدثًا واقعيًا ذا بال، مشتملةً على قصةٍ تُعنى بموضوع، يرِدُ بقالبٍ كلميٍّ مسجوع، مرصّعٍ بقصيدةٍ أو أبيات، تتزينُ بها تلك المقالات، وفيها بطلٌ يدورُ معظمُ المقامةِ عليه، وراوٍ يُسندُ ما جرى إليه.

وقد كتبَ في هذا الفنِّ جهابذةٌ أعلام، وأبدعَ فيه أربابُ أقلامٍ وأفهام؛ أمثالَ بديعِ الزمانِ الهمذاني (المتوفى: 398هـ)، وأبي القاسمِ الحريري (المتوفى: 516هـ)، وغيرِهما من حملةِ رايةِ البيان، وأحبارِ هذه اللسان.

وكنتُ قد شغفتُ[1] في صباي بقراءةِ مقاماتِ الحريري، وكلفتُ بها[2] فكانت نجيّي وسميري[3]، وقرأتُ شرحَها لأبي العباسِ الشَّريشي(ت: 619هـ) الذي أبدعَ في شرحِ عباراتها، وإخراجِ مخبّآتِها، وفكِّ رموزِها وإشاراتِها، والإكثارِ من سردِ الفوائد، وعقلِ النكاتِ[4] الشوارد.

فكتبتُ بعد مدةٍ أولَ مقاماتي وهي المقامةُ الامتحانية في سنة:(1425هـ)، ثم انشغلتُ عن المقاماتِ سنينَ عددا، لكنني رجعتُ إليها على شوقٍ يدعوني، وشغفٍ مالكٍ يحدوني، فكتبتُ مقامةَ كورونا في عام (1441هـ)، ثم تابعتُ الكتابةَ بعد ذلك حتى أتممتُ عشرين مقامة، واكتفيتُ بها.

(1) أحببت.

(2) أحببت.

(3) **النجي**: المسارر، **والسمرة**: الحديث في الليل، ومن يحسنها يقال له: سمير.

(4) **عقل**: قيّد. **والنكات**: المسائل والفوائد الدقيقة.

وقد جعلتُ ما أمليتُه على لسانِ أبي الحارثِ، وأسندتُ روايتَه إلى مسلمِ بن عبدِ الله؛ إذ كلُّ إنسانٍ حارثٌ، وكلُّ مسلمٍ مسلمٌ وابنُ عبدِ الله.

وسلكتُ في هذه المقاماتِ العشرين الإيضاحَ وتركَ الإغراب، فلم أجنحْ إلى اختيارِ الألفاظ الغريبة إلا قليلاً، وهذا القليلُ قد بينتُ معناه في الحاشية.

من أجل أن تكون مفهومةً لدى الخاصة والعامة؛ إذ كان هدفي الأعلى فيها معانيَها وليس مبانيَها، مريداً بذلك إيصالَ رسالةٍ وعظية، أو فائدةٍ علمية، عبرَ صهوةِ مقامةٍ أدبية؛ لإصلاحِ المجتمعِ المسلم فكراً وسلوكًا.

وأحبُّ أن أنبّه على أن كل بيتٍ شعري في هذه المقاماتِ فأنا قائلُه، ولم آخذه عن غيري، إلا في ثلاثة مواضع:

الأول: بيتان للمتنبي ذكرتهما في المقامة العيدية.

الثاني: بيتان ذكرتهما في المقامة النحوية، وهما:

صَاحِ شَمِّرْ وَلاَ تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوْ ... تِ فَنِسْيَانُهُ ضَلاَلٌ مُبِينُ

والآخر:

أَلاَ يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى البِلَى ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاًّ بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

الثالث: ما نسبته في المقامة الشعرية إلى صاحبه باسمه، أو بالإشارة إليه.

مع اعترافي بعدَ كلِّ هذا بقلةِ البضاعةِ الأدبية، وضعفِ المادةِ اللغوية، ولكنْ يعزّيني أني بذلتُ جهدي في حدودِ معرفتي، ودرتُ في كتابتي في نطاقِ قدرتي.

وأستوفقُ اللهَ الكريمَ لإصلاحِ ما دونتِ البنان، وتسديدِ ما استكنَّ في ضميرِ هذا البيان، وقد سميتُ هذا النظامَ الجامع لهذه المقاماتِ بـ" عناقيد البيان".

راجيًا أن أكونَ قد وفِّقتُ فيما كتبت، ووصلتُ إلى ما إليه قصدت، وعلى اللهِ أعتمد، وإليه استند، ومنه استمطرُ الصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

كتبه: د. عبد الله بن عبده العواضي

22/ 7/ 1444هـ، 13/ 2/ 2023م.



المقامة الجامعية

قال مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: قُبيلَ محاضرةٍ جامعية، في قسمِ اللغةِ العربية؛ ضمّني وزملاءَ الدراسةِ مجلسُ كلام، عمّا يعنينا من مقرراتِ هذا العام، وجرى بنا الحديثُ إلى الخوضِ في وعدِ دكتورِنا أبي الحارثِ في الأمس، عن الموضوعِ الذي سيتحدثُ عنه في هذا الدرس، فقد أعلنَ عن أهميتِه، وشدةِ الحاجةِ إلى معرفتِه، وكونِه يُدرسُ في فنونٍ عدّة، ولا يفتقرُ العلمُ به إلى طويلِ مُدّة، غيرَ أنّه لم يكشفْ لنا عن عنوانِه، ولم يُعطنا قرائنَ تهدينا إلى بيانِه، فطفقنا[1] ندوكُ[2] ليلتَنا وصدرَ يومِنا في درايتِه، وتحديدِ ماهيتِه، ومازلنا نطرقُ أبوابَ الحدسِ والتخمين[3]، لعلّنا نظفرُ بانفتاحِ باب اليقين، حتى أطلّ علينا الدكتورُ طلقَ المُحيّا[4]، فجلسَ على كرسيّه وسلّم وحيّا، ثم شرعَ في حديثِه إلينا، وإملائِه علينا فقال:

وعدُ الحُرِّ دَين، لا يعتريه خُلْفٌ ولا مَين[5]، وأنجزَ حرٌّ ما وعد، كما لديهم

---

(1) فجعلنا.

(2) نخوض ونتداول الرأي.

(3) الفراسة والوهم.

(4) مضيئ الوجه.

(5) ولا كذب.

قد ورد، وقد وعدتُكم بالحديثِ عن موضوعٍ جمٍّ[1] الفوائد، غزيرِ العوائد، تتهدلُ[2] فروعُه بالجنى[3] النافع، وتفوحُ أزهارُه بالعَرْفِ[4] الرائع، ولعلكم قد أَجلْتم أفكارَكم في ميادينِ التنقيب، ووصلَ زحفُ خيلكم في الموضوعاتِ إلى البعيدِ والقريب، فمن منكم أصابَ سهمُ بحثِه هدفَه، وظفرَ بعنوانِ الموضوعِ وعرفَه؟

فرفعَ عددٌ من الطلابِ أيديَهم يستأذنون بالجواب، وكلٌّ يرومُ[5] أن يكونَ قولُه هو الحقَّ والصواب، فأصغى لإجاباتِهم، وأرعى[6] لتنقيرِ خيالاتِهم، فقضى بخطأِ تلك الأقوال، وطرْفُه الباحثُ في القاعةِ مازال.

قال الراوي: وكنتُ قد مخضتُ[7] الفكرَ فيما درسنا من الموضوعات اللُّغوية، وما مرَّ بِنا من الأبوابِ ذاتِ الأهمية، فلم أرَ فيها المشتركَ اللفظيَ في حيِّزِ الموجود، فقلتُ: لعله هو الموعودُ المقصود، فترددتُ في الانخراطِ في سلكِ المجيبين، والذاهبين مذاهبَ التعيين، لكنني قطعتُ حبلَ الترددِ وصرمتُه[8]، ورفعتُ يدي للجوابِ فأصبتُه.

---

(1) الكثير.

(2) تتدلى.

(3) بالثمر.

(4) بالطيب.

(5) يطلب.

(6) واستمع.

(7) حركت.

(8) وقطعته.

فقال الدكتورُ أبو الحارثِ: قطعتْ جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب، وأشرقَ علينا الجوابُ الفاصلُ المصيب، فلله أنتَ إذ أصبتَ كبدَ الحقيقة، ومضيتَ إليها بالتأني على أحسنِ طريقة.

أجل، هذا موضوعُ حديثِنا، وعنوانُ ما به وعدنا، فكونوا لما أتلو عليكم آذانًا مصغية، وقلوبًا واعية، فلعلَّ رياحَ معرفةٍ تجري إليكم بسحابٍ مطير[1]، وتمرُّ على رياضِ عقولِكم بعرْفِ العبير[2].

اعلموا يا أبنائي، وصفوةَ أحبائي: أن العربيةَ محيطٌ واسع، منبسطٌ شاسع، بعيدُ الغورِ على الغائصين، ممتدُ المدى أمامَ السابحين، لا يحيطُ بمكنونِها العظيم، إلا نبيٌ كريم، وهذا وسامُ شرفٍ على جيدِها[3]، وبرهانُ صدقٍ على استحقاقِ تسويدِها، فأيُّ لغةٍ نافتْ[4] عليها في سموِّ الشان، والخلودِ على مرورِ الزمان، وسَعتِها لكلِّ جديد، ودقةِ تعبيرِها في كلِّ طارفٍ وتليد![5].

ستبقى على كرِّ الزمانِ عَليّةً ... يَشقُّ إلى أُفْقِ الخلودِ سموقُها[6]

هي اللغةُ الفُضلى على سائرِ اللُّغى[7] ... إذا أبحرتْ في الدهرِ زادَ بريقُها

---

(1) ذي مطر.

(2) بريح الطيب.

(3) عنقها.

(4) ارتفعت.

(5) **الطالب**: الجديد. **والتليد**: القديم.

(6) علوها وارتفاعها.

(7) اللغات.

ولــو هرمــتْ يومًــا ســواها فإنهــا تَـشِبُّ ويزهــو في الــسماءِ شــروقُها

ومن مظاهرِ هذه السعةِ اللغويـة، في لغتِنـا العزيـزةِ العربيـة، وجـودُ الاشـتراكِ اللفظيِّ في بعضِ كلماتِها، مما يشيْ[1] بعلوِّ رايتِها، وذلك أن الكلماتِ العربيةَ إما أن تكونَ متباينةَ الألفاظِ والمعاني، مختلفةَ المقاصدِ والمباني، وهـذا القسمُ هـو أكثرُ الألفـاظِ العربيـة، وبـذلك تتحـدثُ المؤلفـاتُ المعجميـة، وإمـا أن تكـونَ مترادفةً: معنى الكلماتِ واحـد، واللفـظُ لـذلك المعنـى متعـدد، وإمـا أن تكـونَ مشتركةً في كلمات، بأن يتحدَ اللفظُ وتكونَ له معانٍ مختلِفات.

والاشـتراكُ في العربيـةِ كثيـرٌ في الحـروفِ والأفعـال، قليـلٌ في الأسـماءِ عنـد الإجمال؛ فالفعـل الماضـي يـأتي للخـبرِ والـدعاء، كـ رحـمَ اللهُ الرسـلَ والأنبيـاء، والمضارعُ يأتي للحال، وكذلك يأتي للاستقبال، والاشتراكُ في الحـروفِ مشـهورٌ عند النحويين، ومعلومٍ في كتبِ المصنفين.

ولـما كـانَ الاشـتراكُ جاريًـا في أقـسامِ الكلمـةِ العربيـة؛ دلَّ ذلـك علـى أنّ لـه جليلَ أهمية؛ ولـذلك تناولَـه بالبحـثِ اللغويـون، وأكثرَ ذِكـرَه الأصـوليون، ولـم يغفلْه عن الدرسِ النحويون، ولا غضَ الطرْفَ عنه البلاغيون والمفسرون.

واعلموا–يا أبنائي– أن الاشتراكَ وجهٌ من وجـوهِ الوضـعِ في العربيـة، وأكثـرُ مـا يرجـعُ إلـى الاشـتقاقِ والمجـازِ في الاسـتعمالاتِ اللغويـة؛ ولهـذا حـصلَ في وجودِه في العربيةِ خـلاف، ولـم يكـن لـدى الجميـعِ محـلَّ وفـاقٍ وائـتلاف، وقـد

(1) يدل.

اشتهرَ القولُ بإنكارِه عن ابنِ درستويه في شرحِ الفصيح، ورأى قومٌ أن رأيَه فيه هو الرجيح، واستدلوا على ذلك بأن الإقرارَ بوجودِ هذه الظاهرةِ اللغويةِ يؤدي إلى الإلباس، وليس من الصوابِ والحكمةِ التعميةُ على الناس، واستدل بعضُ مناصريه على الإنكار، وعدمِ الوجودِ والإقرار، بأن الكلمةَ التي يقالُ بأنها من المشتركِ واتضحَ أنها الأصلِ؛ فهي للحقيقةِ في الاستعمال، وبقيةُ الإطلاقاتِ لها تكونُ على سبيلِ المجازِ في جميعِ الأحوال.

ولكنّ هذا الرأيَ مردود، وعدّه قومٌ غيرَ محمود؛ فظاهرةُ الاشتراكِ اللفظي في العربية، قد أصبحتْ في كتبِ أهلِ العلمِ والنظرِ كالشمسِ المرئية، فلا برهانَ أبينَ من الوجودِ والإقرار، لدى العلماءِ في جميعِ الأمصار.

قال الراوي: ثم قطعَ اتصالَ الكلام، وإيرادَ الحِجاجِ في هذا الخصام؛ أنْ رفعَ أحدُ التلاميذِ للحديثِ إصبعَه، وكرِه الدكتورُ أن يردَّه ويمنعَه، فقالَ: سلْ عما تريد: تستفهمُ أو تستزيد.

فقال التلميذُ: لقد ذكرتم الاشتراكَ في الأسماء، ولم تُشيروا إلى أمثلةٍ لها عندَ العلماء.

فقال الدكتورُ للتلميذِ: أحسنتَ الاستعلام، وأعجبني منك هذا الاستفهام. فمن منكم أيّها النبلاء، والفطناءُ الفضلاء، يسردُ أمثلةً للمشتركِ في الاسم، تتمُّ بها المعرفةُ والعِلم؟

فقامَ طالبٌ وقال: من المشتركِ الاسميِّ لفظُ الهلال، وكذلك اسمُ الخال.

وقام آخرُ وقال: يجوز، أن يكونَ من الأمثلةِ اسمُ العجوز.

ثم سكتَ جميعُ الطلاب، ولم يزيدوا في التمثيلِ والجواب.

فقال الدكتورُ: هناك مثالٌ اسميٌّ مشهور، وهو في الكتبِ مسطور، وعلى ألسنةِ الناسِ يدور، له من المعاني نحوُ خمسين، كما ذكر ذلك بعضُ المصنفين. فتذكرتُ أنه اسمُ " العين"، بلا شكٍ ولا مين، فرفعتُ إصبعي بذلك، وأضفتُه إلى نسقِ ما هنالك.

قال شيخُنا الدكتور: للهِ درُّك، قرّتْ بكَ العين، ولو كان لي جِدةٌ[1] لوهبتُ لك من نفيسِ العين.

نعم، طلابي الأعزّاء، ومستمعيَّ الأوفياء؛ فإن للعين معانيَ كثيرة، ومراداتٍ وفيرة، فهي تأتي بمعنى العينِ الباصرة، في الوجوهِ الناظرة، وبمعنى الذهب، وقد نطقَ بذلك العرب، وبمعنى عينِ الماء، التي لا تخلو منها الأنحاء، وبمعنى المطرِ المنهمر، في أيامٍ يستمر، وبمعنى الشمسِ المعروفة، المشرقةِ المألوفة، وبمعنى أهلِ الدار، وبذلك وردتْ أخبار، وبمعنى خيارِ الشيءِ وأحسنِه، وأجودِه وأزينِه، وبمعنى الجاسوس، الذي ينقلُ خبرَ الجلوس، وبمعنى الشيءِ نفسِه على الحقيقةِ لا المجاز، وتلكَ بعضُ معانيها على سبيلِ الإيجاز.

قال الراوي: ثم قامَ طالبٌ يقول: هل في العين من نظمٍ منقول، أو لكم فيها قريضٌ مقول؟

---

(1) غِنى.

فقالَ الشيخُ الدكتور: لا أحفظُ فيها نظمًا مأثورا، ولا أجدُ لي فيها شعراً مسطورا ، ولكنْ خذْ على البديهةِ ما ذكرت، واعرفْ معانيَها على الترتيبِ الذي رتبت، **فأنشدَ قائلا:**

يا قُرّةَ العينِ في الأيامِ، رؤياكِ ... أغلى من العينِ ما أحلى سجاياكِ[1]
عينُ المحبةِ في الأحشاءِ جاريةٌ ... تروي الفؤادَ وعينُ السُّحْبِ حاكاكِ[2]
فأنتِ للقلبِ عينٌ يستضيءُ بها ... بعدَ الظلامِ فحيّا اللهُ مرآكِ
وأنتِ في العينِ عينُ الحاضرينَ سَنَاً ... كالبدرِ يفخرُ نوراً بين أفلاكِ[3]
ولو بعثتِ بعينٍ يطمئنُ على ... حُبِّي لآبَ[4] بسُعدٍ نحوَ مثواكِ
وقال عينُ الهوى تبدو كما نطقتْ ... لُسنُ القوافيْ وقلبُ المرءِ يهواكِ[5]

فلما أتم الأبياتَ التي نظمتْ معانيَ العين، ونقدَنا بها بدلاً عن الوعدِ والدَّين؛ فوجِئنا بانتهاءِ وقتِ المحاضرة، بعدَ هذه الفوائدِ المتكاثرة، فوعدنا شيخُنا بالحديثِ عن هذا الموضوعِ على التمام، في لقاءٍ آخرَ في قادمِ الأيام.

---

(1) أخلاقك.

(2) شابهك.

(3) سنا: ارتفاعًا. أفلاك: نجوم.

(4) لرجع.

(5) يحبكِ.



حدّثَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: ولجَ[1] علينا شهرُ رمضان، فتقاطرَ[2] إلى المساجدِ الرجالُ والوِلدان، فأقبلوا على تلاوةِ القرآن، وابتهلوا بين يدي الرحمن، وصلّوا صلاةَ مكسوّةً بالخشوع، وأطالوا فيها السجودَ والركوع. فقلت: ما أحسنَ أَوبةَ العباد، بعد الإعراض والبِعاد، وأعظمَ هذا الجمعَ الخاضع، الذي غصَّ[3] به الجامع، وقد تركَ وراءه منازعَ دنياه[4]، وهفا[5] إلى منافع أُخراه، يحدوه[6] طلبُ الأجر والغفران، ويُطمِعه نيلُ الجنة والرضوان.

وبينا أنا سابحٌ في إعجابِ العين والقلب، بجمعِ العابدين بين يَدي الرب إذ أعلنَ المؤذنُ بالإقامة، وبَرزَ الأقرأُ للإمامة، فصلينا الظهرَ وكأنا في جُمعةٍ من الازدحام، أو يومِ عيدٍ من عيدي العام، فلما قضينا الصلاةَ بالسلام، وشرعنا بالاستغفارِ قبل الكلام، وقفَ بين أيدينا شيخٌ ذو هيبةٍ ووقار، فامتدتْ إلى مقامه

(1) دخل.

(2) جاءوا متتابعين.

(3) امتلأ.

(4) ملهياتها التي تنزع المرء إليها.

(5) وأسرع.

(6) يسوقه.

الأعناقُ والأبصار، وبدا من هيئتِه سيما الصالحين، وجَلالُ العالِمين، فامتطى قدميه، وقبضَ رأسَ عصاه بِراحتيه[1]، وأسرجَ القولَ إلينا، وأملى من حديثه علينا **فقال:**

الحمدُ لله الذي جعلَ رمضانَ خيرَ الشهور، واصطفى زمنَه على سائرِ الأزمانِ والدهور، وجعلَه منزلاً لتنزّلِ بركاتِه، ومضاعفةِ الأجورِ على طاعاتِه وقرباتِه.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ الذي أوجبَ صيامَ رمضانَ على العباد، ووعدَهم بعظيمِ الثوابِ عليه يومَ التناد.

وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه المصطفى، ورسولُه المجتبَى، الذي أرشدَنا إلى فضائلِ هذا الشهرِ وأعمالِه، وحثَّنا على المسابقةِ إلى الخيراتِ في ظِلالِه.

صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه الطاهرين، وصحابتِه المكرمين، وسلّم تسليما.

أيُّها الناسُ، لقد أظلّكم شهرٌ عظيم، ونزلَ بفِنائِكم ضيفٌ كريم، يحملُ معه جوائزَ غاليةَ الثمن، وغصونًا متدليةَ الثمرِ والمِنن، ينتظرُ مستأهِلاً يحُلِّيهِ بأجملِ حُلاه، ويُهديه ألذَّ ما في مُجتناه، فهلْ فيكمْ من هو أهلٌ لهذه الهدايا، قبلَ الندمِ يومَ المنايا، ومسارِعٌ إلى هذه الخيرات، قبلَ النزولِ إلى محلّةِ الأموات؟

فلِمثلِ هذا الخيرِ يسارعُ المسارعون، وفي فضلِه يتنافسُ المتنافسون، أفما سمعتمْ اللهَ يدعوكم إلى المسارعة في (آل عمران)، ويندبُكم إلى المنافسة في

---

(1) بكفيه.

(المطفِّفين) قبلَ الحسرةِ والخسران؟

ألا فليذّكرِ الغافل، قبلَ الأجلِ النازل، وليعملِ العاملُ قبل الفوات، وليُجدَّ المبطئُ قبل هجومِ الممات، وليتزودِ العاقلُ بهذا الزاد، لساعةِ حاجتِه يومَ المعاد.

أيها الصُوّام، والعُبّادُ الكرام، لقد زارَكم رمضانُ ليُنضِي[1] أبدانكم، لكي يُشبعَ أرواحَكم، ويُشغِلَ جوارحَكم وأعضاءَكم، حتى يُصلِحَ قلوبَكم وأنحاءَكم، فما لكثرةِ الطعامِ هلَّ هلالُه، ولا لطولِ المنامِ قد امتدَّتْ ظِلالُه، فما لي أسمعُ عن قومٍ قد أخذوا الأسواقَ إلى البيوت، وكأنّهم لن يجدو إلى عامٍ بعضَ القُوت، وما لي أجدُ كثيرين مغرَمينَ بطولِ عِناق الِّلحاف، في زمنٍ فضلُ الصحوِ فيه غيرُ خاف، أفما يفقهونَ حِكمةَ الصيام، ويعتبرون بمَن مضى من الأنام، وقد فاتَهم فضلُ هذه الأيام، ويتمنون أنهم الساعةَ معكم في هذا الإكرام؟ فأين أنتمْ من صيامِ اللسانِ عن فاحشِ المقال، وصيامِ اليدينِ عن سيءِ الأعمال، وصيامِ النظرِ عن العورات، وصيامِ السمع عن محظورِ المسموعات، وصيامِ الخُلق عن دنيِّ الخِلال، وصيامِ القدمينِ عن الخُطى إلى شرِّ الفِعال؟

وكيف أنتمْ في تلاوةِ الكتاب، والنظرِ في مضمون هذا الخطاب، هل غايتُكمْ منه الإكثارُ من قراءةِ الآيات، من غيرِ التزودِ بالعبرِ والعظات، وهل تقرؤونه والأذهانُ حاضرة، وعلائقُ الدنيا عنكم نافرة؟

(1) ليُهزِل.

أما إنكم لو قرأتم وتدبّرتم، وتأمّلتم واتعظتم، وعملتم بما قرأتموه، وأثّرَ فيكم ما تلوتموه لكانَ ذلك هو الهدفَ المنشود، والعملَ المحمود، ولو سورةً واحدةً أوصلتْكم إلى تلك الغايةِ الحميدة، وسلكتْ بكم تلكَ السبيلَ السديدة؛ لكان ذلك خيراً من ختماتٍ تتوالى، وهَذرمةٍ[1] فيها تتعالى، قد خلتْ من عِبرةٍ تُستفاد، وجوارحَ لمواعظها لا تنقاد.

طوبى لكمْ إن صِرتُم ملازمينَ للتقوى، وصدَقتمُ اللهَ في العلنِ والنَّجوى، ودمتمْ على صلاةِ التراويح، التي تَشفيكمْ من التباريح[2]، فما حافظَ عليها إلا عبدٌ صالح، وموفَّقٌ فالح، أرادَ إرضاءَ ربِّه، وغفرانَ ذنبه، قد تركَ مُلهياتِ ليالي الصيام، وقلَّلَ من الشرابِ والطعام، فوجدَ في تلك الصلاةِ راحتَه، وذاقَ من حلاوتِها لذتَه.

يا أربابَ الأموال، وملّاكَ العَقار[3] والغِلال[4]، لقد فُتح لكم بابٌ من أعظمِ أبوابِ الحسنات، ووردَ عليكم زمنٌ من أفضلِ أزمانِ الصدقات، فتفقّدوا بما أعطاكم اللهُ بني غبراء[5]، ولا تصرفنّكم بناتُ النفسِ[6] عن هذا العطاء، ولا

---

(1) إسراع في القراءة بلا تدبر.

(2) الشدائد.

(3) **الْعقار**: كل ملك ثَابت لَهُ أصل كالأرض وَالدَّار.

(4) جمع غلَّة، وهي: الدخل من كِرَاء دَار أَو ريع أَرض.

(5) بنو غبراء: الفقراء.

(6) بنات النفس: الوساوس

ولا يَعدلنَّ بكم أبو مُرَّةَ[1] عن هذا الحباء[2]، فسارعوا إلى الجودِ قبل لقاءِ أُمِّ قشعم[3]، ومجيءِ الندم ولاتَ ساعة مندم.

ثم أنشد:

أتى رمضانُ يَرفُلُ[4] بالعطايا ... ويَبرُقُ بالفضائلِ والمزايا
ويَندُبنا بِحَثٍّ مُشمَعِلٍّ ... على سَبْقٍ إلى تلك الهدايا[5]
ففي رمضانَ تزكو النفسُ لمَّا ... تصومُ عن الرذائل والخطايا
وتكبحُ جَمْحَ أهواءٍ[6] تَنزَّى[7] ... وتركبُ نحوَ طهرتها المطايا
وتُهدي للورى خُلُقًا كريمًا ... يصونُ عن الفواحش والدنايا
تَخفُّ الرُّوحُ في طلب المعالي ... وتَصفو فيه عن دَنس السجايا[8]
ويغدو القلبُ في نهرٍ فُراتٍ ... يُغسِّلُ عنه أدرانَ البلايا
هلمَّ اليومَ فالإكرامُ ثَرٌّ ... وجِدُّوا في الغَدايا والعَشايا[9]

---

(1) **أبو مرة**: إبليس.

(2) العطاء.

(3) **أم قشعم**: المنية.

(4) يتبختر.

(5) **ويندبنا**: يدعونا. **مشمعل**: مسرِع نشط.

(6) يمسكها عن العتو والانحراف.

(7) تتحرك وتطمح إلى الباطل.

(8) **تخف**: تسرع. **السجايا**: الخلائق.

(9) **ثر**: كثير. **وجدوا**: أسرعوا.

فيا أهلَ الهمّةِ العالية، والعزمةِ السامية، استمروا في ميدانِ السباق، ولا تُصغوا لكلِّ من ثبَّطَ وعَاق، وستعلمون -ما استمريتم- أن عُقباكم إلى خيرٍ عظيم، وموئلٍ كريم، وحينَها ستحمدون ما منكم جرى، وفي الصَّبَاح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى.

ويا أيها المقصِّرون، لحَاقِ لحاقِ[1]، قبل أن تبلغَ الروحُ التراقي، فانزعوا عنكمْ دثارَ الفتورِ والكسل، والبسوا شِعارَ الجِدِّ وحسنِ العمل، فما أسرعَ ما تدركون بذلك مَن سبقكم، وتصبحون أسوةً حسنةً لمن لحِقكم.

ويا أيها المذنبون، البِدارَ البدار[2]، قبل أن تُلقيَكم الأوزار في حفرةٍ من حفرِ النار، والوحَاءَ الوحاء[3]، والنجاءَ النجاء[4]؛ قبل مفاجأةِ القضاء، وإدراكِ رسولِ الفَناء[5]، فأنتمْ اليومَ في محطةٍ من محطاتِ الغفران، وأيامٍ مشهودةٍ في استرضاءِ الرحمن.

فاسمعوا مني هذا النصحَ المبين؛ فإني لكم اليومَ ناصحٌ أمين، ولا تُلقوا بهذا القولِ دَبْرَ آذانكم[6] نَسيًا منسيا، ولا تتخذوه وراءكم ظِهريا؛ فإني عن علمٍ قد

(1) الحقوا الحقوا.

(2) الاستعجالَ الاستعجال.

(3) الإسراعَ الإسراع.

(4) الإسراعَ للنجاةِ الإسراع.

(5) **يعني**: ملك الموت.

(6) **يقال**: جعَلَ كَلاَمَكَ دَبْرَ أُذُنِهِ: لم يُصْغِ إليه، ولم يُعَرِّج عليه.

تكلّمت، ولحُبٍّ لكم بين أيديكم وقفت، وسلامُ اللهِ عليكم ورحماتُه، وتنزلتْ عليكم صلواتُه وبركاتُه.

فلما وصلَ حيث استدرّت موعظتُه العيون[1]، واقتحمتْ ببلاغتها على الغفلةِ الحصون، وأصغتْ لدُررِه القلوبُ قبلَ الآذان، وصَقلتْ كلماتُه الأرواحَ والأذهان؛ أسمعه الناسُ الدعاءَ الغزير، والشكرَ الكثير، وأقبلوا عليه يصافحونه، ويُثنون عليه ويعانقونه، فانسللتُ من موضعي إلى تلك الجموع المدّكِّرة[2]، وانضممتُ في سلكِ الزُّرافات[3] المنتظرِة، فمددتُ يدي إليه، فسلمتُ بحبٍّ عليه، فإذا هو شيخنا أبو الحارث بتواضعِه وعلومِه، وفصاحتِه وفهومِه، فدعوتُه للمنزلِ للإفطار، فأبدى لي وجهَ الاعتذار، فودّعْنا شخصَه الصالح، وأبقى فينا قولَه الناصح.

(1) أسال دموعها.

(2) المتعظة.

(3) الجماعات.



أخبرَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: يمّمتُ البيتَ الحرام، معَ رُفْقَةٍ من الكرام، الذين تزولُ بهم وحشةُ القِفار، ويُستضاءُ بنورِهم في دجى الأخطار، فودّعْنا الأهلَ بالمصافحةِ والعناق، وركبْنا مراكبَ الأشواق، وطفقَ[1] الطريقُ يطولُ على تباريحِ[2] الحنين، ولوعةِ القاصدين المحبِّين، فلما وصلنا أرضَ الحرم، وملتقى العربِ والعجم، ورأينا الكعبةَ المشرّفةَ تفترُّ[3] بالنور؛ غمرتنا البهجةُ والسرور، وتحدّرتْ على الخدودِ دموعُ الجذَل[4]، وصافحتِ الصبابةُ[5] أياديَ الأمل، فلا أسرّ من ساعةِ التلاق، عند توهجِ المحبةِ والاشتياق.

فقضينا هناك مناسكَ العمرةِ فرحِين؛ طائفين وساعين، ومحلِّقين ومقصِّرين، فلما فرغنا من نُسكِنا، دلفنا[6] إلى سكنِنا؛ لنُلقيَ العناءَ على الأسِرَّة، ونغسلَ عنّا

(1) وجعل.

(2) توهج.

(3) تتلألأ وتبتسم.

(4) الفرح.

(5) الشوق أو حرارته.

(6) مشينا.

النّصبَ[1] والمضرّة، بعد مشاقِّ الأسفار، والنأي[2] عن الوطنِ والديار.

وبعد أنْ ذاقتِ الأجسادُ من الراحةِ ما شبعتْ، واستعادتْ قوّتَها التي فقدت؛ حملتْنا أفراحُ الروحِ إلى المسجدِ الحرام، لنقضيَ الوطرَ[3] في السجودِ والركوعِ والقيام، والطوافِ والتلاوةِ والدعاء، والذِّكرِ والحمدِ والثناء.

وظللنا ننهلُ من منابعِ تلك اللذات، ونخلعُ عن أنفسِنا أسمالَ[4] الضِّيقِ والمكروهات، ولسانُ حالِنا يقول:

هنا لذةُ الأرواحِ تمتدُّ والهوى ... يَعبُّ من السعْدِ الجليلِ ويرتويْ[5]
وترحلُ آهاتُ الزمانِ وبؤسُها ... ويذهبُ حزنُ الدهرِ عنّا وينزويْ[6]
وتُشرِقُ شمسُ الروحِ في النفسِ والسّنا ... يهلُّ على سيرِ الحياةِ فيستويْ[7]

وبينا نحنُ على تلك الحالِ الوارفةِ[8] الظلال، المتلألئة بأضواءِ المسرّةِ والجمال؛ إذ رأينا الناسَ وحدانًا وزرافات[9]، متاقطرين[10] جماعاتٍ تلوَ

(1) التعب.
(2) والبعد.
(3) الحاجة.
(4) **الأسمال**: الأثواب البالية الخلِقة.
(5) **الهوى**: الحب. **يعب**: يشرب بلا تنفس ولا مص.
(6) وينقبض.
(7) **السناء**: الضياء. **فيستوي**: فيستقيم.
(8) الممتدة.
(9) جماعات.
(10) جاءوا متتابعين.

جماعات، حتى قعدوا بين يدي كرسيٍّ منصوب، منتظرين لحديثٍ محبوب.

وما هو إلا وقتٌ يسير، حتى أطلّ علينا شيخٌ كبير، فجلسَ على الكرسيِّ بوقار، وسلّمَ على القاعدين والنُظّار، فلما توسمتُه إذا هو شيخُنا أبو الحارثِ ذو الفقهِ والبيان، الذي سارت بفضائلِه الركبان، وأضحى يُشارُ إليه بالبنان، في جميعِ الأوطان.

وحينها وقعتْ الطيرُ على الرؤوس، ومدّ السكونُ بساطَه على الجلوس.

فابتدأَ الشيخُ بالبسملة، وثنّى بالصلاة والحمدلة، وصمتْ هنيهة[1] منتظراً من الحضورِ طرقَ بابِ الأسئلة؛ إذ كان ذلك المجلسُ قد أُعدّ لذلك الغرض، وعلى ذلك يبقى وينفض[2].

فوقف -ساعتئذ- شابٌّ تبدو عليه سيما[3] النبوغِ والنباهة، ويعزبُ[4] عنه العيُّ والفهاهة[5]، فأنشأَ يقول: ائذنوا لي بإلقاءِ سؤالات، وطرحِ مسائلَ عليَّ مشكلات، قد قرأتُها في رجزِ أبيات، وقد خفيَ عني فيها الجواب، وجهلتُ في مجاهلِها الخطأَ والصواب، وأنا طالبُ عربية، وقارئُ كتبٍ نحوية.

فقالَ الشيخُ: سلْ فمثلُكَ يُجاب، ولا يُصدُّ عنه ولا يُعاب.

(1) زمنًا قليلا.

(2) ويتفرق وينقضي.

(3) علامة.

(4) ويغرب.

(5) العِيّ.

فقالَ الشابُّ:

مــا كِلْمـــةٌ في الجمـــعِ والإفـــرادِ لــم تختلــفْ عنــدَ أُهيــلِ الــضادِ

إلا إذا ميّزهــــــا الــــــــضميرُ وأنتَ -شـيخي- العـالمُ النحريرُ [1]

فقالَ الشيخُ:

هــيَ دِلاصٌ في الــدروعِ يــا فتــى ومثلُهــا فُلْــكٌ لــديهمُ أتــى [2]

قالَ الشابُّ:

وكِلْمــــةٌ تقـــلُّ في المعـــاني بزائـــدٍ مـــن أحـــرفِ المبـــاني

وإنْ أتــتْ بحــذفِ ذاكَ الحــرفِ زادتْ معــاني اللفـظِ عنـدَ العُـرْفِ

فقالَ الشيخُ:

أقـــولُ تلـــكَ تمـــرةٌ وتمْـــرُ ومثـــلُ ذاكَ جمْـــرةٌ وجمْـــرُ

ونحـــوُ هـــذا عنـــدهمْ قـــدْ وردا وهْـــو كثيـــرٌ في الكـــلامِ عَـــددا

قالَ الشابُّ:

وأيُّ لفـــظٍ إنْ أتـــى منفيـــا غـــدا لإثبـــاتِ اللُّغـــى حريّـــا [3]

وإنْ بـــدا بحُلّـــةِ الإثبـــاتِ نفـــى المقـــالَ ســـائرَ الأوقـــاتِ

---

(1) الْعَالم الحاذق فِي علمه.

(2) وَدرع دلاص: لينَة. **والفلك**: السفينة.

(3) **اللغى**: جمع لغة. **حريا**: جديرا.

فقالَ الشيخُ:

فإنّـه في النحـوِ "كـاد" فـافهمِ ... علـى خـلافٍ للنحـاةِ فـاعلمِ

قالَ الشابُّ:

وأيُّ حـرفٍ يرفـعُ الوضـيعا ... ويخفِـضُ العلـيَّ والرفيعـا

فقالَ الشيخُ:

إذا أردتَ عِلـمَ ذا فإنّـهُ ... لامُ ابتـداءٍ فاسـمعنَّ شـأنَهُ

فـإنْ أتـى ديـارَ "ظـنَّ" علّقـا ... نـصبَ الكـلامِ وبهـذا وضـعا

وعنـدما يجـيءُ فعـلاً يرفعُـهْ ... بـشَبَهِ الأسـما فيـسمو موضـعُهْ

قالَ الشابُّ: أختمُ بهذا السؤال، لا فارقَ فناءَكَ النّوال، ولا غادرَ سموّكَ بهاءُ العلمِ والجلال:

وأيُّ حـرفٍ جـاءَ ذا الكمـالِ ... فـشانَه[1] بـالنقصِ والإخـلالِ

وإنْ أتـى العامـلَ والمعمـولا ... قـضى بفـصلٍ رامَـه فـضولا[2]

فقالَ الشيخُ:

النـونُ إنْ خفّـتْ مـن الإثقـالِ ... ودخلـتْ مـضارعَ الأفعـالِ

فـإنْ عنيـتَ الـذِّكرَ للتوكيـدِ ... أنقـصتهُ عـن رتبـةِ التمجيـدِ

(1) فعابه.

(2) قضى: حكم. رامه: طلبه. فضولا: ما فائدة فيه.

وإنْ جعلــتَ النــونَ للوقايــةِ   فإنهـــا تفـــصلُ في النهايـــةِ
مــا بــينَ معمــولٍ وعامــلٍ وذي   أجــوبتي لمــا طرحــتَ فاحتــذِ[1]

فلما سمعَ الشاب، صائبَ الجواب قال للشيخِ: لا عدمناك منهلاً رويّا[2]، وسحابًا بالغيثِ نديّا[3]، وزادَ اللهُ مدَّ معارفِكَ السَّنيّةِ[4]، ورفعَ آفاقَ سنائِك[5] العليّة.

قال الراوي: ثم وقفَ رجلٌ تلوحُ عليه أعلامُ الفقهاء، وتظهرُ عليه حِليةُ أهلِ القضاء، فقالَ: أيها الشيخُ الكريم، والغيثُ العميم، أشكلتْ على أحدِ جُلّاسي مسائلُ فقهية، وقضايا تشريعية، فسألني فلم أُحِرْ عنها جوَابا، ولم أدرِ فيها صوابا، فادخرتُها لك؛ لعلمي بطولِ باعِك، وكثرةِ اطلاعِك، وشهرةِ اضطلاعِك بحلِّ المشكلات، وفكِّ عُقدِ المعضلات، وقد عهدناك قبلةَ السائلين، ومُزنةَ[6] الممحلين[7].

فقال: اعرضْ ما لديك من الإشكالات، فلعلَّ الله يُلهمُني فيها سدادَ

(1) فاقتدِ.
(2) كثيراً مرويا.
(3) سخيّا.
(4) العليّة.
(5) ضيائك.
(6) وسحابة.
(7) المجدبين.

الإجابات؛ فهو المُعين، ولولاه ما كنتُ أُبيْن.

فقالَ الرجلُ: ما الوضوءُ الذي يخلو من غسلِ عضوٍ ظاهر، ولا ضرورةَ تمنعُ من تركِ غسلِه للمقيمِ والمسافر؟

فقالَ الشيخُ: هو غسلُ الرجلين عند الاغتسال، فيؤخرُ ذلك إلى نهايةِ الغسلِ مع بقاءِ الاتصال.

قالَ الرجلُ: ما مَيْتةٌ يحلُّ أكلُها بلا جُناح[1]، ولا اضطرارٍ في مساءٍ أو صباح؟

فقالَ الشيخُ: هي ميتةُ السمكِ والجراد، وتلك نعمةٌ من اللهِ على العباد.

قالَ الرجلُ: ما شيءٌ يجوزُ أكلُه، وإهداؤه وبذلُه، ولكن لا يجوزُ لصاحبِه أنْ يبيعَ جزءًا من أجزائِه، ولو بولغَ في ثمنِ إعطائِه؟

فقالَ الشيخُ: هو الأضاحي إن ذبحتَها، طبختَ لحومَها أو تركتَها، فلا يجوزُ بيعُ شيءٍ من ذلك؛ لأنها قد جُعلتْ للهِ المالك.

قالَ الرجلُ: ما تقولون في رجلٍ صلى وفخذُه بادية، وصحتْ صلاتُه في الحاضرة والبادية؟

فقالَ الشيخُ: مرادُهم بالفخذِ العشيرة، صغيرةً كانت أو كبيرة، وعنوا ببادية، السكنَ في البادية.

---

(1) بلا ذنب.

قالَ الرجلُ: ما المكانُ الذي تجوزُ فيه صلاةُ النافلةِ اتفاقا، ولا تجوزُ فيه صلاةُ الفريضةِ وفاقا؟

فقالَ الشيخُ: ذلك المكانُ المقدسُ المنيف[1]، هو داخل الكعبةِ زاداها الله من التعظيمِ والتشريف.

قالَ الرجلُ: مسلماتٌ حرائرُ بالغات، ولسنَ للرجلِ من القريباتِ المحرَّمات، ولكنْ لا يجوزُ له أن يتزوجَ إحداهن، صُغراهن كانت أو كبراهن؟

فقالَ الشيخُ: هنّ أمهاتُ المؤمنين، زوجاتُ خيرِ المرسلين، وعقيلاتُه[2] في الدنيا ويوم الدين.

قالَ الرجلُ: رجلٌ صلى صلاةً واحدةً إلى عدةِ جهات، وصحّتْ صلاتُه كصلواتِه الأخريات؟

فقالَ الشيخُ: ذاك رجلٌ مسافرٌ صلى نافلة، واختارَ لها ظهرَ الراحلة.

قالَ الرجلُ: يومٌ من أيامِ البيضِ لا يجوزُ فيه الصيام، ويجوزُ في سائرِ الأيامِ في العام؟

فقالَ الشيخُ: ذاك اليومُ الثالثَ عشرَ من أيامِ التشريقِ للمقيمين، كما ورد في سنةِ سيد المرسلين.

---

(1) العالي.

(2) زوجاته الكريمات.

قالَ الرجلُ: رجلٌ حصلَ له في صلاتِه سهوٌ ظاهر، غيرَ أنه لا يجوزُ له سجودُ السهوِ مع أنه قادر؟

فقالَ الشيخُ: ذاك سهوٌ في الصلاةِ على الأموات؛ لأنها صلاة ليس فيها ركعاتٌ ولا سجدات.

قالَ الرجلُ: ما صلاةٌ من الصلواتِ الخمسِ هي سرّية، وقبلَها أربعُ صلواتٍ جهرية؟

فقالَ الشيخُ: هي صلاةُ العصرِ المعهودة، في يوم الجمعةِ المشهودة.

قالَ الرجلُ: قال رجلٌ لزوجتِه: أنتِ طالقٌ إنْ ولدتِ ولدينِ حيين، أو ولدتِ ولدينِ ميتين، أو ولدتِ ذكرين، أو ولدتِ أنثيين، فولدتْ ولدين فلم يحصلْ لها طلاق، وما جرى بينها وبين زوجِها فراق؟

فقالَ الشيخُ: تلك امرأةٌ ولدتْ بأنثى وذكر، فماتَ أحدُهما وتأخرَ الآخر.

فلما وعى الرجلُ إجاباتِ الشيخِ الصحيحة، وأقوالَه المحررةَ الرجيحة؛ قال: شكرَ اللهُ لكم أيها الشيخُ الجليل، ومنحَكم الأجرَ الكثيرَ الجزيل؛ فقد كشفت لي المعمّى[1]، وأزحتْ عني شدةَ الغُمّى[2]، فلا زالَ بحرُك زاخراً بالعلوم، وسماؤكَ مشرقةً بأنوارِ الفهوم.

---

(1) اللغز.

(2) الشدة.

قال الراوي: ثم انفضّ ذلك المجلسُ الصالح بالدعوات، والفوائدِ الجمةِ الكثيرات، وعُدنا إلى رحلِنا بهذه النعمةِ مغتبطين(1)، وعلى سحبِ المسرةِ محمولين، وعقدنا العزمَ على لزومِ ذلك المجلسِ المباركِ مدةَ بقائِنا في البلدِ الحرام، في جميعِ الليالي والأيام، حتى نعودَ إلى مرابعِ(2) الوطن، وديارِ الإقامة والسكن.

---

(1) فرحين.

(2) منازلنا.



المقامة الشبابية

حكى مسلمُ بنُ عبدِ الله قالَ: هجمَتْ على نفسي غشاوةُ المَلل، وشكَّ بها[1] ألمُ الضيقِ واتصل، فعزمتُ على ركوبِ مطيّةِ الخروج، للتنزّهِ في بعضِ المروج[2]، لعلّيْ أتخفّفُ من ثِقلِ العِلل، وأجلُو قلبي من صدأِ جِدِّ العمل، وقد نَصح الحكماءُ بإجمامِ النفسِ[3] وإراحتِها، والبعدِ عن إدامة تكليفها وإعناتها؛ لأنها كالدابةِ لا تُعطي ربَّها ما يشاء، حتى يريحَها من الكدِّ والعناء. **وقد صدقَ من قالَ.**

إذا النفسُ تمطو في المجالِ بجدِّها — ولم تسترحْ منه تذوبُ كَلالا[4]
وبالرَوْحِ[5] تعدو للمُنى الغُرِّ مثلما — تمرُّ رياحٌ يمنةً وشِمالا
ويُولَدُ فيها العزمُ والجِدُّ كلما — أصابتْ على حرِّ العناءِ ظِلالا

فأطلقتُ نفسي من أصفادِها، وسمتُها[6] في مرابعِ[7] إسعادِها، فطفتُ بها في

---

(1) ولصق بها.

(2) جمع مرج، وهو: أَرض وَاسِعَة ذَات نَبَات ومرعى.

(3) بإراحتها

(4) **تمطو**: تجد في السير. **والكلال**: الضعف والفتور.

(5) وبالراحة.

(6) ورعيتها.

(7) جمع مربع وهو: الْموضع يُقَام فِيهِ زمن الرّبيع.

في روضةٍ تأنَّقت[1] أشجارُها بالخمائلِ[2] الخضراء، وتراقصتْ أغصانُها بروعةِ البهاء، واستراحتْ أسماعُها بخريرِ جداولِ الماء، وتغاريدِ بلابلِ الدوحِ في الأرجاء، وتضمّختْ[3] جوانبُها بطيبِ أزهارها النّدية، وشذا[4] أنسامِها[5] النقية.

فبينا أنا أُلقي عن نفسي أسمالَ[6] العناء، مستجدّاً[7] لها في تلك الرياض الغنَّاء[8]؛ أبصرتُ جمعًا كأنَّ على رؤوسهمُ الطير، حتى لا تُحرِّك سكونَهم أصواتُ السّير، فاقتربتُ من ناديهم، وأصغيتُ سمعي إلى مُناجيهم، فإذا بشيخٍ قد علاه الوقار، ونطقَ مرآهُ بهيبةِ العلم والادّكار، وإذ به يعظُ شبيبةً قد صعّدوا إليه النظر، وأداروا فيما يقولُ التأملَ والفِكر، فكانَ مما قال:

أيها الشبانُ الكرام، والفتيان العِظام: هل تفكرتم في شبابِكم وتقضّيهِ، وتأملتُمْ في طريفِ[9] سِنّكم وتناهيه، ومآلِ رونقِه[10] عند بلى الأجساد[11]،

(1) حسنت وأعجبت.

(2) جمع خميلة، وهي: الشَّجر الْمُجْتَمع الْكثير الملتف الَّذِي لَا يُرى فِيهِ الشَّيْء إِذا وَقع فِي وَسطه، وكلُّ مَوضِع كثر فِيهِ الشّجر.

(3) وتلطخت.

(4) وطيب.

(5) رياحها اللينة.

(6) الثياب البالية.

(7) مستحدثًا لباسًا جديدا.

(8) كثيرة الشجر.

(9) حديث.

(10) حسنه.

(11) فنائها في القبور.

وسؤالِكم عنه يومَ يقومُ الأشهاد، أما رأيتمْ أقرانًا لكم قد مَضُوا، وجموعًا في عمرِكم قد قضوا، لم يُنظِرْهم الحِمامُ[1] حتى يستوفوا متعةَ الشباب، ويستمتعوا بطُولِ لقاءِ الأتراب[2]، بل فجعَهم الموتُ بوثبتِه، وقطفَ زهرةَ زمنِهم بفجأتِه، فقطعَ عنهم بلوغَ ما أمّلوا، وصاروا عندَ اللهِ رهينَ ما عملوا، لم يُعذَروا بشبابٍ لم تُستكملْ لذاتُه، وعُمرٍ ذاهبٍ لم تُستثمرْ أوقاتُه، ولو أُعطوا في قبورِهم مُناهم، ورُدُّوا بعدَ مماتِهم إلى محياهم، لطلبوا فرصتكم هذه ليعمروا الشبابَ بصالحِ العمل، وينزهوا مُحيّاه من نُدوب اللهو والزلل[3]. فحتى متى يغرُّكم الشبابُ باستيفاءِ مطالبِ الشهوات، ويخدعُكم شياطينُ الإنسِ بصرفِه إلى مهاوي الموبقات، قائلين لكلِّ شاب، خَاتلين[4] ضعفاءَ الألباب: متِّعوا شبابَكم؛ فبعدَ الحياةِ ممات، وعقيبَ الشبابِ كِبرٌ تَهرمُ فيه اللذات!!.

ألا ليتهم قالوا لكم: أنتم في أزهى[5] مراحل العمر وأولاها، وأفضلِ سِنيِّ حياتكم وأقواها، ألا فزيِّنوا شبابَكم بِحلى المعرفةِ والعلم، وطيّبوه بعَرْفِ النأي[6] عن الإثم، وجمِّلوه ببهجةِ العفةِ والصيانة، واكسوه بسابغِ استقامةِ الديانة، فهناك يكونون قد أَهدوكم القولَ الجميل، وهدوكم إلى سواءِ السبيل.

(1) الموت.

(2) المماثلين في السن.

(3) آثار جراحهما.

(4) خادعين.

(5) أحسن.

(6) البعد.

أيها الشبان: ما أعظمَكمْ وأنتم ذوو هممٍ عالية، وأهدافٍ سامية، تسعون إلى غاياتِ الحمد، وتَرقون إلى آفاقِ المجد، تَنصرون الدِّين بصلاحِكم وإصلاحِكم، وتعمرون الأرضَ بمعارفِكم ونجاحِكم، وتَنفضون عنكم غبارَ اللهوِ والكسل، وتتعطرون بعبيرِ الجِدِّ والعمل، وما أحسنَ شبابَكم إنْ أعطى للحقِّ القياد، وأحبَّ مسالكَ الهدى والرشاد، وأطفى جُذى الشهواتِ الملتهبة، في مناهل الحلال العذبة، ولم يُصغِ لِيتًا[1] إلى نشاز الأصوات[2]، ودعاة الردى والانحرافات، **ثم أنشد:**

ألا ليتَ الشبابَ يَعوُن نُصحي ... فكمْ يَحوي من الحِكَم الجليلهْ
فقد خضتُ السنينَ وعُدتُ منها ... مليئًا من تجاربها الطويلهْ
فمرحلةُ الشبابِ بها جموحٌ[3] ... إلى الأهواءِ والسُبلِ الرذيلهْ
وتهوي بالفتى في كل خزيٍ ... إذا أرخى أزمّتَها الجديلهْ[4]
ولكنْ مَن لوى نحوَ المعالي ... عِنانَ شبابه نال الفضيلهْ
وأركض في مجال النور دهراً ... خيولَ شبابِه أروى غليلَهْ[5]
فكم فضلٍ ترعرعَ في شبابٍ ... فأبهجَه بغُرَّته الجميلهْ

---

(1) أمال صفحة عنقه إليه.

(2) سيئها

(3) عتوٌّ.

(4) **وتهوي**: وتهبط. **والجديلة**: المحكمة الفتل.

(5) ظمأه.

وأنبــــتَ بالنقـــاْ عُقبـــى رشـــادٍ | تكـــونُ لــه مــن الــدنيا خـضيلهْ[1]
فطـــوبى للفتـــى إنْ شـــقَّ دربًـــا | وكـان سـنا[2] الهـدى الزاكـي دليلَـهْ
وجاهــــدَ نفـــسَه حتـــى أراهـــا | علـى التقـوى مواهبَهـا الجزيلـهْ

قال الراوي: فما كفّ صيِّبُ وبلِه[3]، ولا توقف ثجيجُ[4] سيلِه، حتى ملأَ أسماعَنا دُررا، وحشا أذهاننَا غُررا، فالتفتُ إلى جمع الشبانِ وقد بلغَ برقُ قولِه متاهاتِ الدجى[5] من قلوبِهم، فأشرقتْ بعد إظلام، وشُفيتْ على إِثْر شكوكٍ وأوهام، وتجلّى لها مستقيمُ السبيل، بعدَ أن أمّها[6] ضياءُ الدليل، فعاهدوا الشيخَ على سرعةِ الإجابة، وإعلانِ التوبة والإنابة، وطي صفحةِ اللهوِ المديد، وطردِ زمانِ العبث التليد[7]، فدنوتُ من مجلسِ الشيخِ الصالح، بعدَ سماع هذه المواعظِ والنصائح، فقلتُ: قد عرفتُك يا أبا الحارثِ الهُمام، منذ أن امتطيتَ صهوةَ الكلام، وأرخيتَ لبلاغتك الزِّمام، فليس غريبًا عنك ما بلغت، ولا عجيبًا ما وعظت وخلبت[8]؛ فأنت فارسُ هذا الميدان، وبدرُ السالكين في هذا

---

(1) مبتلّة نديةأي: حسنة.
(2) ضياء.
(3) سحاب مطره المنصب الشديد.
(4) منصب.
(5) الظلام.
(6) قصدها.
(7) القديم.
(8) فتنت القلب. بفصيح قولك.

الشان، ثم ودعتُه وفي النفس ظمأٌ إلى واكفِ هطلِه[1]، والارتواءِ من معين علمِه وفضلِه.

(1) مستمر مطره.



مقامة كُوْرونا

حكى مسلمُ بن عبدِ الله قال: في العامِ الذي صِرنا فيه أحلاسَ بيوتِنا[1]، وخلتْ عنا طُرقُنا وأسواقُنا؛ بسببِ فشوِّ عَدْوَى كُوْرونا، الذي لم يُعدِ العمرُ به مأمونا؛ ولَجَ[2] مدينتَنَا من مدينتِه أبو الحارثِ الزاهدُ ذو الأخبارِ الطريفة، والمجالسِ اللطيفة، والعلمِ النافع، والفضلِ الواسع.

فلما مدَّ خطواتِه في مسالكِ المدينة، تلفَّتَ شمالَه ويَمينَه، فاستوحشَ مما رآه، وثقلتْ به رجلاه في مَمشاه؛ إذ لم يرَ من بني آدم ولداً ولا والدا، ولا رائحًا ولا عائدا، وعهدُه بهذه المشارع[3] أنها بالزحام معروفة، وبكثرةِ الجَلَبة[4] موصوفة، فما لها اليومَ صامتةَ الأرجاء، ساكنةَ الأنحاء، لا يتحركُ فيها إلا أغصانُ أشجارِها، ولا يُسمعُ فيها إلا هديلُ أطيارها، فهل تركَها أهلُها وراحوا، ومَضوا إلى غيرها وساحوا!.

فقال: لعلَّ السوقَ قد جمعتْ أشخاصَهم، ومنعتْ عنها إشخاصهم[5]،

(1) الملازمين لها بلا براح.

(2) دخل.

(3) الطرق.

(4) الصياح والصخب.

(5) ظهورهم وبدوهم.

فمضى إليها وقد كُسي الاستغراب، وتملَّكهُ الارتياب، فلما أشرفَ عليها، ونظرَ محدِّقًا[1] إليها، ألفاها[2] خاليةً من الباعةِ والمشترين، والمارِّين والناظرين، فزاد عجبُه عجبًا، ورِيَبُه رِيَبا، فقال: لعلَّ المسجدَ الجامعَ قد احتواهم، لأمرٍ عناهمْ أو عنَّاهم[3]. فَدلفَ[4] إليه وقد انسلخَ منه الاستئناس، واشتاقَ إلى رؤيةِ الناس، فلما بلغَ باحةَ[5] المسجد الجامع، راغبًا في النظرِ إلى ما فيه من المجامع؛ إذا به يجدُ المسجدَ موصدَ[6] الأبواب، وليس فيه مصلٍّ ولا بوَّاب.

فحينئذ أَسَرَتْه الحَيرة، ولم يحمدْ في ذلك اليوم سَيْرَه، فانطلق إلى سكني، وموضع مأمني، وكنتُ له قبلَ اليومِ صديقًا لِما له من حسنِ المحاضرة[7]، والفوائدِ واللطائفِ المتكاثرة، فجرَّ جسدَه الُمضنَى[8] إليَّ، ونزل بعجَبِه عليْ.

فلما طرقَ بابَ داري، ومنزلَ استقراري فزِعتُ لهذا الطارق، في هذا الظرفِ الطارق[9]، فقلتُ: من أنتَ أيها الآتي في زمن الحَجْر[10]؟ فقالَ بصوتٍ قد

(1) مديمًا للنظر.

(2) وجدها.

(3) كلّفهم ما يشق عليهم.

(4) فمشى.

(5) ساحة.

(6) مغلق.

(7) طيب المجالسة والمحادثة بما حضره.

(8) المريض.

(9) الحادث.

(10) الحجر الصحي، وهو: المنع من الخروج إلى الطرقات والأسواق زمنًا معينا.

جهدَ[1] صاحبَه أَمْر: صديقُك أبو الحارث، ونزيلُك[2] اليومَ في هذا الحادث.

ففتحتُ البابَ وعلى يديّ القُفّازان[3]، وعلى فمي كمّامةٌ[4] تمسكها الأُذنان، فلما تراءينا عند الباب، واستعدّينا للخِطاب، استغربَ حالي واستغربتُ حالَه، وأنكرَ ما عليّ وأنكرتُ إقبالَه، فقلتُ: مالي أراك هجمتَ في هذه الساعة المحظورة، وكيف بلغتَ هذه الدارَ المعمورة، والناسُ قد نُهوا عن الخروجِ من منازِلهم، والظهورِ إلى شوارعهم؟!.

فقال: ما هذا اليوم! أفي يقظةٍ أنا أم حُلْم، فلا أدري مما أَعجب، ولا أيّ الأمورِ التي رأيتُ هي أغرب؟.

فقال: دعني أدخل، فلعلك جهينةُ الخبرِ اليقين، والكاشفُ هذا اليومَ عن غمي المتين.

فلما تمكّنَ في الجلوس، واستأنستِ النفوس قال: ما لي أرى مدينتكم العامرةَ قد خفتتْ[5] فيها الأصوات، وعزبتْ[6] عن عيني صورُ البشر

---

(1) أرهق.

(2) وضيفك.

(3) **القفاز:** لِبَاس الْكَفّ.

(4) ما يوضع على الفم والأنف، وكان يَجْعَل ذلك قديمًا عند العرب على أنف الْحمار أَو الْبَعِير؛ لِئَلَّا يُؤْذِيه الذُّبَاب.

(5) سكنت.

(6) وغابت.

الشاخصات، فهل أهلُها أحياء أو أموات؛ إذ لم أجد في مسالكِها وأسواقِها غيرَ صرصرةِ الرياحِ[1] العاتية، وأصواتِ الكلاب العاوية، وما لي أرى عليك حِليةَ الأطباء، وما عهدتُك من هؤلاء الحكماء؟!.

فهلْ منْ مُغرِّبَةِ خبَر[2]، ودلوفٍ[3] إلى معبر[4]، أعرفُ به سببَ تغيرِ الأحوال، وأكشفُ عني ما أَرهقَ البال؟.

فقلت: على الخبيرِ سقطت، وإلى اليقين وصلْت، أما تدري بأن العالَم اليومَ يعيشُ أزمةً صحية، ويقارعُ جيوشًا خفيّة؟.

فقال أبو الحارث: فضَّ مُعجمَ الكلام، ولا توقعْني في شَرَكِ[5] الإبهام؛ فإني في زيادة تَيهٍ منذ وصلت، وتوالي لَبْسٍ من حين أقبلت.

فقلت: غزا العالَمَ فيروسٌ يُدعى كورونا، لم يره الناسُ بل مازال عنهم مكنونا.

فقال: أسالكَ بربِّ البيتِ إلا أزحتَ عني كُرَبَ التّعمية، وفسرَّتَ لي هذه التسمية؛ فإن عربيتنا خاليةٌ من هذا اللفظِ الغريب، وهذا التعريفِ المُريب.

---

(1) شدة صوتها.

(2) أي: هل من خبر جديد؟

(3) مشي.

(4) ما يعبر عليه إلى غيره.

(5) حبالة الصيد.

فقلت: كورونا: داءٌ يُعدي، يُمرِض أو يُردي[1]، ظهرَ في مدينةٍ صينية تُعرفُ ب "ووهان"، ثم سرى منها إلى كثيرٍ من البلدان، وغدا في سرعةٍ يسيح، كالغيثِ استدبرتْه الريح، فماتَ بفتكِهِ عددٌ كثير، وأُصيبَ به جمٌّ غفير[2]، وصارَ الناسُ في رعبٍ منه أنْ يَدهمَهم، ويتجهَ بعدَ غيرِهم نحوَهم، حتى انتهجتْ[3] بعضُ الدولِ طريقًا لتخفيفِ بَلواه، والسلامةِ من تفشي عَدوَاه، فألزمتِ الرعيةَ بالبقاءِ في البيوت، إلى أمدٍ موقوت، وودْعِ[4] مواطنِ الازدحام، حتى يرحلَ بريدُ الموتِ الزُّؤام[5].

فقالَ أبو الحارثِ: سبحان الله! أهذا ما جرى اليومَ على العباد، واتَّشحتْ[6] بالخلوِّ لأجلِه البلاد؟! وبلغتِ الحالُ من الموتِ والسقمِ ما سمعت، ومن الخوفِ الشديدِ ما شهدت؟.

فقلْ بربِّك -يا مسلمُ- ما يعمل الناسُ في مدينتِكم من الأعمال، وما الذي جَنوه حتى ينزلَ بهم هذا النَّكال؟.

فهل بارزوا اللهَ بالمعاصي ولم يستتروا، ونزلتْ بهم النقماتُ فلم يفتقروا؟

فقلت: نعم، واللهِ قد كان، في جميعِ البلدان، بل أضحى العصيان، هو

---

(1) يهلك: يميت.

(2) جمع كثير.

(3) سلكت.

(4) وترك.

(5) العاجل.

(6) ولبست.

المجاهَرَ به في الأوطان، وصارَ المؤمنُ الصالح غريبًا بين أهلِه وإخوانِه، مَعِيبًا بصلاحِه لدى معارفه وجيرانِه.

فقال: فهلْ كان فيهم الظلمُ فاشيا، والاعتداءُ بينهم باديا؟.

فقلت: إي، وربي إنَّ هذا لَظاهر، وما له بيننا من ساتر، بل إن الظالمَ اليوم يزعمُ أنه مظلوم، ويطالبُ بحقِّه المهضوم لدى المظلوم، حتى أصبح الظالمُ بينهم منصورا، والمظلومُ منسيًا مقهورا؟.

فقال: فهل تعاملوا في بيوعِهم بالربا، وأمسى بينهم ظاهراً بلا خفاء؟.

فقلت: نعم، إنه غدا بينهم متداوَلا، وأضحى لكثير من تجاراتهم شاملا، بل إنه قُنِّنتْ لفرضِه القوانينُ الملزِمَة، وحُدِّدتْ لمخالفتِه العقوباتُ المؤلمة.

فقال: وهل ظهرتْ بينهم الفواحشُ والبغاء[1]، حتى أعلنوا بذلك على الملأ؟.

فقلت-والغمُّ يعتلجُ[2] في صدري، والحزنُ يملك عليَّ أمري-: قد كان ذلك، وأعظمُ مما يجولُ في بالِك، فقد صارَ أهلُ الفحشِ يجاهرون بلا نكير، ويتمدحون بفاحشتِهم أمام الصغيرِ والكبير، عبرَ شبكتِهم العنكبوتية، وقنواتِهم الإعلامية، بلْ فُتحتْ أمام شهواتِهم الأبواب، وولجوا إلى أَسَنِهم ولهم الحراسُ والحُجَّاب، وأعطتْهم بعضُ الدول رُخصًا وحقوقا، فازدادوا بذلك بغيًا وفسوقا.

(1) والزنا.

(2) يجتمع.

فلما سمعَ أبو الحارثِ جوابَ ما سأل، وعرفَ حقيقةَ ما حصل؛ استولى عليه الغضبُ واشتمل[1]، وبدتْ عليه بُرَحاء[2] الوجَل[3]، فقام من مكانِه فزِعا، واتجه نحوَ البابِ مسرِعا، وقال: المفرَّ المفرَّ إلى مدينتي النَّقية، ومَغْنَى طاعة ربِّ البرية، قبلَ أنْ ينزِلَ بي سخطُ الرحمن، وتعمُّني عقوباتُ هذا العصيان.

ثم أنشدَ والخوفُ يُسرعُ بخطواتِه، ودمعُه يُندي[4] حَرَّ أبياته:

يا ربّ لطفَكَ أن يجتاحَنيْ[5] الغضبُ ... أو أن يحلَّ بضعفي شؤمُ ما ركِبوا

فقد أتوا بخطايا بعضُها حرَضٌ[6] ... فكيف لو جُمعتْ، يا بئسَ ما كَسبوا

يجاهرون بكُبرى السيئاتِ ولمْ ... يردعْهمُ الخوفُ والأيامُ والكُتُبُ

ونعمةُ الله فيهمْ لم تكفّ لها ... سحابةٌ، وبقاْ النُّعمى[7] هو العَجَبُ

لو يرجعُ الناسُ للمولى على ندمٍ ... وتوبةٍ منهمُ ما نالهمْ عَطَبُ[8]

وليس للنعمةِ الُمعطاةِ من نِقَمٍ ... إلا الذنوبُ هي الإيقادُ والحَطَبُ

(1) استحكم عليه.

(2) شدة.

(3) الخوف.

(4) يبلل.

(5) يهلكني.

(6) مرض شديد مهلك.

(7) النعمة.

(8) هلاك.



المقامة العِيدية

روى مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قالَ: غربتْ شمسُ الثلاثينَ من رمضان، وملأَ النفوسَ الفرحُ بإتمامِ عبادةِ الرحمن، فهلَّ علينا هلالُ العيد، وأشرقَ لنا ثغرُ اليومِ السعيد، فألبسَ جسدَ الحياةِ بهجةً[1] وألقا[2]، وكسا الوجوهَ سروراً ورونقا[3]، فبدا الزمانُ تَبرقُ أساريرُ مبسمِه، وتلمعُ على جوانبِه جِدَّةُ[4] موسمِه، وكأنه غَسلَ عنه غبارَ الدهرِ السالف، ونزعَ عنه خرقَ الأحزانِ والمخاوف، فرأى أهلَهُ قد ألقوا عنهم الثيابَ العتيقة[5]، وارتدوا الألبسةَ الجديدةَ الأنيقة[6]، وأهدوا فلذاتِ الأكبادِ وسائلَ الفرحِ والإسعاد، وتوسّعوا في المباحات، وأخذوا في الاستزادةِ من الملذاتِ المشروعات، وتبادلَ الأقاربُ والأصدقاء، عباراتِ التهاني والدعاء.

هكذا كنا نعهدُ يومَ العيد، قبل هجومِ البلاءِ الجديد[7].

---

(1) سرورا.

(2) وضياءاً.

(3) وحُسنا.

(4) حداثة.

(5) القديمة.

(6) الحسنة.

(7) وهو بلاء كورونا.

وبينا أنا في عصرِ هـذا اليومِ أقرأُ رسـائلَ الأحبـاب، وأُحبِّرُ[1] في الـردِّ عليها لطيفَ الجواب، إذ سمعتُ طرقَ البـابِ بـلا إيـذان[2]، فقلـت: مـن زائرُنـا في هـذا الأوان[3]؟!

فمـضيتُ إلـى بـابِ الـدارِ والعَجَـبُ يملكُنـي، واليقـينُ بتعيـينِ زائـري لا يسعفُني، فقلتُ مَنِ الطارقُ الكريم، في هذا اليـومِ العظـيم؟ فقـال: الـسلامُ عليـكَ ورحمةُ الله، هذا صديقُك الذي تحبُّ رؤياه.

ففتحـتُ البـابَ فـإذا هـو شـيخُنا أبـو الحـارثِ العـالِم، صـاحبُ الفـضائلِ والمكارم.

فقلتُ: هذا عيدٌ تُوِّجَ[4]بعيد، ويومٌ سعيدٌ أَتم سعدَه ضيفٌ مجيـد[5]، فـأهلاً بزائرٍ لا يُمَل، ونازلٍ لا يُستثقل.

ففرشـتُ لـضيفي العزيـزِ علـى وجهـي المحبـةَ والابتسام، وعلـى صـدري الإجـلالَ والإعظـام، ثـم شـرعنا في نـشر طـيِّ الحـديثِ المحبـوب، وفـضِّ ختـامِ القولِ المرغوب.

---

(1) وأحسن.

(2) إعلام.

(3) الوقت.

(4) أُلبس.

(5) وافر المجد.

فقالَ: إن هذا اليومَ هو بسمةُ الأيام، وغيثُ السعادةِ من جدبِ العام، وعطيةٌ لمن أجادوا العبادةَ في رمضان، وتسابقوا إلى رياضِ الثوابِ والغفران، فليس لمن أساءَ في شهرِ الصومِ عيدٌ على الحقيقة، ولا فرحةٌ كفرحةِ من أحسنوا فيه الطريقة.

في هذا اليومِ شرعَ اللهُ عباداتٍ تَزيدُ الحسنات، وتمحو السيئات، وتعقدُ عُرى المحبةِ بين المسلمين، وتحلُّ عقدَ البغضِ بين المتشاحنين، وتُنزُلهم منازلَ السرور، وتُلقي على قلوبِهم مباهجَ الحبور؛ فأمرَ بصدقةِ الفِطرِ قبلَ الذهابِ إلى الصلاة؛ إسعاداً للفقيرِ وإطفاءً لجذوةِ بلواه، ودعا عبادَه للخروجِ إلى المصلياتِ الفِساح، لأداءِ صلاةِ العيدِ في تلك البطاح[1]، فيلتقي المسلمُ بأخيه، فيصافحُه ويحييّه، ويهدي إليه ابتسامةَ الوداد، ويفارقُه على عهد التواد.

وفي هذا اليوم تُوصلُ الأرحام، ويَفيضُ الكريمُ بعطائِه على الأراملِ والأيتام، ويتزاورُ الأقاربُ والجيران، والأصدقاءُ والخِلان.

فقلت: لكنّنا في هذا العامِ لم نجدْ للعيدِ حسنَ ما ذكرت، ولا ألفينا[2] شواهدَ مما تحدثت، فلم نذقْ في رمضانَ لذةَ الصيام، ولا حلاوةَ الاجتماعِ في المساجدِ للقيام، وعلى إثرِ ذلك جاءَ هذا اليومُ وبساطُ السعادةِ مطويٌّ عنا، وطائرُ الراحةِ قد أجفلَ[3] منا.

---

(1) الأماكن المتسعة.

(2) وجدنا.

(3) نفر.

فقال: صدقتَ، فوباءُ كورونا قد كرَّ بخيلِه ورَجِلِه، فنشرَ في المجتمعاتِ طلائعَ عِلله ووجَلِه، فبدَّدَ جمعَ الارتياح، وسلبَ من الناسِ حقوقَ الأفراح، فصاروا في عزلةٍ اجتماعية، وإقامةٍ بيتية؛ خشيةَ العدوى، وتفشي هذه البلوى، فلم تعدْ المساجدُ تجمعُهم، ولا المجالسُ تلمُّ فرحتَهم، ولا الحدائقُ تنفِّسُ كربتَهم، ولا لقاءاتُ الأصحابِ تخفِّف غُربتَهم، فصارتْ مجامعُ حياتِهم أوحشَ من طللٍ(1) مُقفر(2)، وأوجلَ(3) من بيتٍ مُصفِر(4)، وأضحى هذا العيد أرخصَ من قاضي مِنَى(5)، بعدما كان أغلى أيامِ الهناء، وأمسى أمرَّ من الحنظل(6)، بعدما كان أحلى من المُنى وأفضل.

فغدا الناس وحوشًا بعدَ الاستئناس، متنافرينَ بعد الإيناس، سجناءَ ولكنْ في الدور، ينتظرون في تلك القبور، تباشيرَ النشور، بذهابِ المحذور.

فقد والله "جَرَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى القَرِيِّ(7)"، ولا تكادُ تسمعُ في الناسِ إلا

---

(1) **الطلل**: مَا بَقِي شاخصًا من آثَار الديار وَنَحْوهَا.

(2) خالٍ.

(3) وأخوف.

(4) خالٍ.

(5) وذلك أن هذا القاضي كان يصلي بهم، ويَقْضي لهم، ويَغْرَمُ زيتَ مسجدهم من عنده!!. مجمع الأمثال (1/ 317).

(6) **الحنظل**: نبت مفترش ثَمَرَته فِي حجم البرتقالة ولونها فِيهَا لب شَدِيد المرارة.

(7) أي: جرى سيلُ الوادي فطَمَّ أي: دَفَن يقال: طَمَّ السيلُ الركيةَ أي: دفنها، والقَرِيُّ: مَجْرَى الماء في الروضة، والجمع أقْرِيَة وقِرْيَان، و"على" مِنْ صلة المعنى: أي: أتى على القَرِيِّ، يعني: أهلكه بأن دفنه. يضرب هذا المثل عند تجاوز الشر حده. مجمع الأمثال (1/ 159).

إلا شجيًا[1] يشكو إلى شجي.

فأيُّ عيدٍ أتى عليهمْ وهم في تلك الحال، وأيُّ فرحةٍ ستغمرُهم وقد صاروا إلى ذلك المآل؟

فكأنّهم يقولون اليومَ:

[عِيْدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بمَا مَضَى أمْ لأمْرٍ فيكَ تجْديدُ
أمّا الأحِبّةُ (فالأدواءُ) دونَهُمُ ... فَلَيتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ[2]]
لم يتركِ المرضُ المُعديْ لنا فرحًا ... إلا وكدّرهُ ضيقٌ وتنكيدُ
فيما مضى كانتِ الأفراحُ تجمعُنا ... في عيدِنا وبه تحلو الأناشيدُ
ونلتقي وظِلالُ الحُبِّ تُبرِدُنا ... والسعْدُ يغمرُنا والأُنسُ موجودُ
ونمتطي بهلالِ العيدِ أجنحةً ... إلى السرورِ ونهرُ الرَّوْحِ[3] مورودُ
واليومَ لا فرحٌ يبدو ولا شغَفٌ[4] ... بالعيدِ حينَ بدا في الناسِ كوفيد[5]

ثم قال: لكنّنا نطمعُ بفضلِ الربِّ الكريم، ورحمةِ الرحمنِ الرحيم، ليزيلَ

(1) حزينا.

(2) **البيد:** جمع بيداء وهي الأرض الواسعة المقفرة.

(3) الراحة.

(4) ولا حُبٌّ.

(5) **كوفيد:** الاسم الرسمي لمرض كورونا المستجد، و(COVID)تسمية مختصرة وفقًا لمنظمة الصحة العالمية ف" سي" و "أو" يشيران إلى كلمة كورونا، وحرفا " في آي" يشيران إلى كلمة فيروس، وحرف " دي" يشير اختصاراً إلى كلمة "ديسيز" التي تعني المرض بالعربية.

عنا هذا البلاء، ويكشفُ عن ساحِنا هذا الوباء، وحينئذٍ ستأتي الأفراحُ بعد الأتراح[1]، ويشرقُ صبحُ العافية، برحيلِ ليالي الداءِ الداجية[2]، ويعودُ علينا العيدُ كما عهدناه سعيدا، ويُضحي الغمُّ عن زمنِه بعيدا.

غيرَ أنّني على شبهِ يقين، وليسَ بظنٍّ ولا تخمين[3]، أن هناك مؤامرةً خفية، ونفوسًا شقيّة، صنعتْ هذا الهولَ المفزِع، ونشرتْ هذا الألمَ الموجع، وركبتْ مراكبَ البهتان في نشرِ الشائعات، بما تبثُّه في الإعلامِ من الإحصائيات، من كثرةِ المرضى وعددِ الوفيات؛ صناعةً للفزعِ المفضي إلى الأسقام، أو الملقي إلى أيدي الحِمام[4].

قال الراوي: شكرَ اللهُ لكم هذا الفهمَ الدقيق، وهذا العلمَ الوفيرَ العميق، فما أحسنَ ما وصفت، وأجملَ ما به وعظت، وأدقَّ ما صوّرتَ وكشفت، فقد جلوتَ الأمرَ على الحقيقة، وحكيت عن حالِه بأحسنِ طريقة، ووضحتَ المسألةَ وضوحا، وتركتَ بابَ الرجاء مفتوحا، فكم للهِ من فضلٍ في كشف البلايا، وبَسْطِ يدِه بالعطايا، وطيِّ بُسُط الرزايا، وحينئذٍ يعود وجهُ الحياةِ برّاق الثنايا.

ثم ودّعني وهو ينشدُ:

يـا ربّ إنَّـا سـائلوكَ المخرجـا ... ممـا دهانـا مِـن بَـلًا وأزعجـا

---

(1) الأحزان.

(2) المظلمة.

(3) بفراسة ووهم.

(4) الموت.

وكـدَّرَ اليـومَ الجميـلَ المبهجِـا حتـى دجـا وكـان قبـلُ أبلجـا[1]

والقلـبُ مـن جمـرِ العنـاْ توهّجـا حتى اكتسى في عيدِه لـونَ الـدُّجى[2]

وحـارَ في هـذي البليّـةِ الحِجـا حتى غدتْ على الورى مثلَ الشّجا[3]

فيـا إلهـيْ أنـتَ نِعـمَ الملتجـا وفيـكَ يـا ربَّ البريّـةِ الرجـاْ

أرسِـلْ إلينـا بعـد هـذا فرجـا يطـويْ بسـاطَ ليلِنـا الـذي سـجا[4]

(1) المبهج: المُسرّ. دجا: أظلم. والمبلج: المسفر المضيء.

(2) توهج: اشتعل. الدجى: سواد الليل وظلمته.

(3) الحجا: العقل. الشجا: مَا اعْترض ونشب فِي الْحلق من عظم أَو نَحوه.

(4) أظلم.



المقامة التفاؤلية

قالَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: في صباحِ يومٍ من الأيام، شغرَ[1] وقتي من الازدحام، ففتحتُ التلفازَ لمشاهدةِ برامجِه وأخبارِه، والنظرِ في أحوالِ الزمانِ وأطوارِه، فلم أرَ من أحوالِ المسلمين وأنبائِهم ما يسرُّ الخاطر، ويبهجُ عينَ الناظر، بل رأيتُ ما يكدِّرُ النفوس، ويفرضُ عليَّ قطعَ المشاهدةِ والجلوس؛ فالصورةُ تحكي حجمَ البؤسِ الواسع، وعظمةَ الانتكاسِ المُريعِ[2] المتتابع، والخبرُ ينطقُ باتساعِ رقعةِ الأحزان، وامتدادِ آفاقِ الحرمانِ من حقوقِ الإنسان، وينمي[3] إلى ذوي القلوبِ الحيّةِ نبأَ جثومِ الليلِ البهيم، وعكوفِ الوجعِ الأليم، حتى أصبحتْ هذه الأمةُ حديثَ وسائلِ الإعلامِ المرئيةِ والمقروءة والمسموعة، في مشكلاتِها المعضلةِ المدبَّرةِ المصنوعة، فغدتْ تُقادُ ولا تقود، وتُسادُ ولا تسود، ليس لقرارِها على العزِّ قرار، ولا لها فيما تبغيه رضا واختيار، يُملى عليها وما لها إلا الطاعةُ العمياء، ولو إلى المهامهِ[4] الظلماء.

فأطفأتُ ضوءَ تلك اللوحةِ المضيئةِ التي تبعثُ الظلامَ إلى القلوب، وترسلُ

(1) فرغ.

(2) المخيف.

(3) ويرفع.

(4) الصحاري البعيدة.

عبرَ أشعتِها رسلَ الآلامِ والكروب.

فاتجهتُ نحوَ الجوّال لأُقلِّبَ طَرْفي في المواقعِ الإخبارية، ووسائلِ التواصلِ الاجتماعية؛ لعلي أرى ما يدعو إلى السرور، ويُهديني الراحةَ والحبور، فلم أرَ إلا توسيعًا للجرحِ العميق، وإذكاءً[1] لما في الصدرِ من لهبِ الحريق؛ فقد رأيتُ الفسادَ في تلك المواقعِ والوسائلِ ضاربًا بين المسلمين أطنابَه، وسحابَ اللهو مرسلاً عليهم أسبابَه، ومحاربةَ التدينِ الصحيحِ تجري على قدمٍ وساق، ومفاتنَ الدنيا تشرئبُّ[2] إليها الأعناق، والمشكلاتِ الاجتماعيةَ تطفحُ[3] بها الصفحات، والشكوى من شقاءِ الحياةِ تضجُّ بها الأصوات.

فبرمتُ[4] مما سمعت، وضجرتُ مما رأيت، فأغلقتُ الجوّالَ وتركتُه، وأبعدتُه عنّي ووضعتُه.

فلمّا عسكر[5] بصدري الغم، وبرّح بي اشتدادُ الهم، ضاقَ بيَ البيتُ مع سعتِه، وتغشّى القلبُ بآهتِهِ وحسرتِه، فخرجتُ إلى السوقِ لأطفئ بعضَ وهجِ الهم، وأخفِّفَ عنّي شيئًا من الغم، فما أفدتُ لكمدي غيرَ الاستعار، وكنتُ كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنار؛ فكم رأيتُ في السوقِ من الغِشِّ والتدليس، والخداعِ والتلبيس، والكذبِ والفجور، واللهوِ والغرور، وقلّةِ الحياءِ من بعضِ

(1) وإشعالاً.

(2) تمتد.

(3) تمتلئ.

(4) فسئمت.

(5) تجمّع.

النساء، وكثرةِ التحرشِ والاعتداء، يُنادى للصلاةِ وهم في غيِّهم سادرون[1]، وفي بيوعِهم لاهون، فكأنّ المنادَى سواهم، والمنادِي ما قصدَهم ولا عناهم.

فقلتُ لنفسي: ضاقَ صدري بما جرى | وطـوّحَ[2] غمّـي بـالفؤادِ لِمـا أرى
فـأينَ أرى برقًـا يلـوحُ بِمُـسعِدٍ | ليكشفَ كربًا في النفوسِ قد اعترى
أهـذيْ علـى المأسـاةِ أحـوالُ أمـةٍ | لها الفضلُ في الدنيا على سائرِ الورى
فـأينَ صـلاحُ النـاسِ والخيـرُ والتُّقـى | وأيـن علـوُّ الـشأنِ ولّـى وأدبـرا

وبينا أنا في سكرةِ غمّي، وتلاطمِ أمواجِ همّي؛ إذ سمعتُ صوتًا قريبًا يقول: يا مسلم، فصحوتُ وجلا، والتفتُ عجِلا، فإذا هو شيخُنا أبو الحارثِ يبتسمُ إلي، ويُسلِّمُ علي، فلما حدّقَ في وجهي قال: ما لي أرى سحبَ الغمومِ تُظِلُّك، وآفاقَ الشرودِ تُقِلُّك[3]، وفي محيّاكَ يرتسمُ الشحوب، وتنطقُ في عينيك الكروب؟!

تعالَ بنا إلى هذه الناحيةِ لنُطلِقَ وكاءَ[4] ما أغمّك، ونجليَ ما أشجاك[5] وأهمّك.

قال الراوي: فلما جلسنا سألني عن سببِ هذه الحالِ الكئيبة، وظلالِ منظري الغريبة.

---

(1) غير مبالين.

(2) ذهب.

(3) تحملك.

(4) رباط.

(5) ما أحزنك.

وقال: فقدْ عهدناك بشوشا، وإلى لقاءِ الناسِ هشوشا، فما لذي غيّرك وأضناك، وغشاك بالوصبِ وعنّاك[1]؟

فقلتُ له: إني أرى أحوالَ أمةِ محمد قد تغيّرت، وعما ينبغي أنْ تكونَ عليه قد تحوّلت، فطغى عليها الذلُّ والتبعية، وسيمتْ خسفًا[2] دون سائر البريّة، واتسعَ بين أهلِها بساطُ الخطايا، وامتدّ على بلدانِها دُجى الرزايا، وانشغلوا كثيراً بدارِ الفناء، وغفلوا عن دارِ البقاء، ولم يعدْ همُّهم هذا الدِّين، ولا السيرُ على منهاجِ رب العالمين.

فكيف لا يشتدُّ حزني وهذه حالُ أُمّتِنا، وانقلابُ أحوالِ أهلِ ملّتِنا؟!

فقال الشيخُ: أنعِمْ بهذه الغيرةِ التي بها اتصفت، وأكرِمْ بهذه المشاعرِ الحيّةِ التي حملت، فهذا رسولُ ضياءِ الإيمانِ ينطقُ منك، وبرهانُ التنسكِ[3] والإذعانِ يصدرُ عنك.

ولكنْ عِ اليومَ ما أذكر، واسمعْ ما أنظمُ وأنثر.

إنك-يا مسلم-حصرتَ نظرتَك في الجانبِ المظلمِ المهين، فخرجتَ بهذا التقريرِ البائسِ الحزين، ورأيتَ الأمةَ كلَّ الأمةِ سائرةً في هذا الطريق، إلى وادٍ مهلكٍ سحيق، غيرَ أنك لو نظرتَ في الجوانبِ المشرقة، والنواحي المضيئةِ

---

(1) أضناك: أمرضك، وغشاك: وغطاك بالوصبِ: الوجع والمرض. وعنّاك: كلّفك.

(2) أولاه ذلاً.

(3) التعبد.

المتألقة؛ لرأيتَ أن الأمةَ مازالَ فيها خيرٌ باق، وأضواءُ فضلٍ تتزيّنُ بها الآفاق، وأنّ مدّها يحملُ بذورَ الفألِ الجميل، ويشيرُ إلى آتٍ وضاءٍ جليل.

وأنّ حُبَّ الهدى والإيمان، وعاطفةَ الانتماءِ لخيرِ الأديان؛ مغروسانِ لدى الأمةِ في الأعماق، وإنْ غطتْهُما أطباقٌ على أطباق، فكلُّ رميةِ اعتداءٍ تُلقى على نهرِ الإسلام، فإنها تخرجُ ذلك المخبوءَ أمام الأنام، والواقعُ على ذلك يشهد، والعالمُ يعلمُ ذلك ويعهد.

فالخيرُ قائمٌ وقادم، رغمَ عتوِّ الموجِ المتلاطم، وكثافةِ الجوِّ القاتم، وإصرارِ الظلامِ المتراكم.

ثم إن الأمةَ المحمدية، موعودةٌ بالسيادةِ المستقبلية، التي تجدُ خبرَها في الآياتِ القرآنية، والأحاديثِ النبوية، فدينُها سيمتدُّ جَناحُه على جميعِ الآفاق، ويُقبلُ عليه الناسُ بالقَبولِ والاعتناق، وسيكونُ الظهورُ له على سائرِ الأديان، وحكمُه على جميعِ البلدانِ والأوطان، وسيعودُ المسلمون إلى التمسّكِ بعُرى الدين، والمثولِ بجميلِ الشيمِ بين العالمين.

ولكنْ آلامُ المخاضِ لا بدَّ منها قبلَ الولادة، والتمحيصُ والتضحياتُ مهرٌ واجبٌ للريادةِ والسيادة، والمرحليةُ سُنّةٌ حياتية، ستمرُّ على الأمةِ المحمدية، فالأيامُ بما فيها من المضار، مقدّمةٌ لما يتلوها من الخيراتِ والمسار.

ثم إنّ أعداءَ الأمةِ كثيرون، وحسّادَها في المكرِ بها لا يزالون، وهم يوقنون بأنّ المستقبلَ لها، وأنّ دفةَ العَالَم ستكونُ إليها؛ لذلك هم يعملون ليلَ نهارَ في

إفسادِ أهلِها، والعملِ على استمرارِ تخلّفها وجهلِها؛ ليأخروا الخُطى على سواءِ السبيل، ويُضلوا السالكين عن الدليل.

أما ترى اليومَ أوروبا النصرانيةَ تنتقصُ من أطرافِها، ويضيقُ بساطُ الراضين بحياتِها وأعرافِها، فيقبلُ الناسُ هناك على دينِ الإسلامِ زرافاتٍ[1] ووحدانا، ويشعّون استقامةً وإيمانا، فإنْ غربتْ شمسُ الإسلامِ من نفوسِ بعضِ من كانوا مسلمين بيننا، فإنها تُشرقُ بتجددٍ على أناسٍ هناك يصبحون إخوانًا لنا.

إن العالمَ البعيدَ عن الإسلام، يعيشُ في أمواجٍ من القلقِ والظلام، فقد صارَ يحيا في خواء[2]، ويئنُّ في أتونِ الشقاء، فلا يجدُ عقلاؤه مُخلِّصًا غيرَ الإسلام، دينِ السعادةِ والأمانِ والسلام.

قال الراوي: ثم أنشدَ الشيخُ:

تفاءلْ فما للحقِّ موتٌ ومغرِبُ ... وهذا كتابُ اللهِ بالأمرِ يُعرِبُ
وتحكيْ خيوطُ الشمسِ في كلِّ مطلعٍ ... على دهرِنا أنّ الظلامَ سيَذهبُ
وأنّ ظهورَ الحقِّ آتٍ بلا مِرا ... وليس لهذا الوعدِ خُلْفٌ مكذِّبُ
وأمةُ خيرِ الخلقِ تبقى ولو بغى ... على أهلِها باغون كُثْرٌ ورهّبوا
هي البحرُ لا يُفنيهِ مُفنٍ بحقدِه ... وقد حاولَ الطاغونَ طُرّاً[3] وجرّبوا

---

(1) جماعات.

(2) فراغ.

(3) جميعا.

فظُـنَّ بهـا خيـراً ولـو ظـلَّ فوقَهـا ... سـحابُ الرزايـا في البريـةِ يَـسكبُ
وإنْ حـادَ عـن دربِ الهدايـةِ بعـضُها ... ففـي بعـضِها البـاقيْ خِيـارٌ مهـذَّبُ
وكـم عـادَ مـن واديْ الـضلالةِ عائـدٌ ... وأضحى إلى روضِ الهدايةِ يَندُبُ[1]
فـلا تيأسـنَّ اليـومَ مـنهمْ فربّمـا ... أضاءَ لهـم في عتْمـةِ الليـلِ[2] كوكـبُ
وفي النـاسِ خيـرٌ بيننـا ومحامـدٌ ... متـى يـدعُهمْ داعٍ إلـى الخيـرِ يرغبـوا

قال الراوي: فلما وعيتُ كلامَه، ونثرَه ونظامَه، انقشعتْ عني غاشيةُ[3] الكآبة، وذهبَ مني غمُّ هذه السحابة، وأمطرَ على نفسي غيثُ التفاؤلِ العميم، واخضرّتْ في قلبي أوراقُ الاستبشارِ العظيم، فصرتُ أتجاوزُ ليلَ الواقعِ الأليم، إلى صباحِ المستقبلِ المشرقِ الكريم، وغدوتُ أحسنُ بالمسلمين الظنون، ولو كان فيهم مقصِّرون ومسرفون، وعزمتُ على أنْ أكونَ داعيًا بالرفقِ والحكمة، وحاملاً للمدعوين أزهارَ الحُبِّ والرحمة.

وشكرتُ شيخَنا أبا الحارثِ على هذه الدررِ المنتقاة، ودعوتُ له بالسعادةِ وطولِ الحياة، وعدتُ إلى بيتي خفيفًا من ثقلِ الغموم، منسلخًا عن ثوبِ الأحزانِ والهموم، وأشرقتْ شمسُ السعادة على مُحّياي، وعاهدتُ النفسَ على التفاؤلَ مدةَ مَحْياي.

---

(1) يدعو.

(2) ظلامه.

(3) غطاء.



المقامة التَّعدُّدِيَّة

قال مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: جلستُ إلى أحدِ أصفيائي، وفردٍ من خِيرةِ أصدقائي، فدارتْ كؤوسُ الأُنسِ علينا، وتجاذبنا أطرافَ الحديثِ بيننا، وحلّقنا في آفاقٍ شتى، وقضينا في الجولانِ فيها وقتا، وتوافقنا في كثيرٍ من الآراء، والتقتْ رؤانا على عددٍ من الأشياء، لكننا تباينا في موضوعٍ واحد، ولم تفصل بيننا فيه كثرةُ الحججِ والشواهد، فمضى زمانٌ والحججُ في سجال[1]، وحبلُ الخلافِ ممتدُّ الاتصال.

فقلتُ لصاحبي: لو فزعنا إلى حَكمٍ نعلمُ حصافةَ[2] آرائِه، فنرضى بحكمِه وقضائِه، فقال: ذاك أبو الحارثِ المعهودُ بالحكمةِ والبيان، وطولِ المراسِ في كلِّ ميدان.

فقلتُ: لقد أحسنتَ الاختيار، فإليه البدارَ البدار[3].

فانطلقنا إلى منزلِ أبي الحارثِ الذي شطّتْ به النَّوى[4]، وضمّتْ رحابَه

(1) مداولة.

(2) حكمة وجودة عقل.

(3) الاستعجال الاستعجال.

(4) **شطت**: بعدت. النوى: البعد والناحية.

النَّاحيةُ القصوى[1].

فلما وصلنا إلى باب مسكنه، وموضعِ موطنِه، هفتْ[2] إلى أسماعِنا جلبةٌ[3] تشتد، وعراكٌ زوجيٌّ محتد[4]، فقلنا: لقد أخطأنا المجيءَ هذه الساعة، وخشينا القفولَ بلا بضاعة، فيذهبُ عناؤنا أدراجَ الرياح، ويبقى ليلُنا الداجي بلا إصباح، وعزمنا على امتطاءِ الأوبة، والرجوعِ بالحسرةِ والخيبة.

غيرَ أن الخلافَ ما لبثَ أنْ خبتْ نارُه[5]، ولهبَ الأصواتِ خمدَ استعارُه[6]، فاخترنا الانتظارَ قليلا، وصبرنا عليه صبراً جميلا.

ثم طرقْنا البابَ على استحياء، وطمعنا أن لا نُردَّ بعد الشُّقةِ[7] والعناء، ففتحَ لنا أبو الحارثِ بابَه، وأنزلنا بكرمِهِ رحابَه، فحيّا بنا وبيّا[8]، وبسطَ لنا بشاشةَ المُحيّا[9]، وقال: أهلاً بضيوفٍ كرام، وأوِدّاء عِظام، على الرحبِ والسعةِ نزلتُم، وعلى السهلِ والأهلِ حللتُم.

---

(1) البعيدة.

(2) أسرعت.

(3) صياح.

(4) محتد.

(5) سكنت.

(6) سكن توقده.

(7) السفر البعيد.

(8) **أي**: قال: حياكما الله وبياكما، **وحَيَّاهُ الله**: أبقاه، **وبياه**: أنزله مكانًا حسنا.

(9) الوجه.

فقابلنا ترحيبَه بالإعظامِ والتبجيل، والثناءِ الوافرِ الجميل.

فقلنا: يا أبا الحارثِ الحكيم، لقد جئناك لأمر عظيم، نرومُ أن نسمعَ فيه رأيَك العادل، وحكمَكَ الفاصل؛ فأنت ذو رأيٍ جزْل، وقضاءٍ عدلٍ فصْل؛ حتى أعودَ وصاحبي إلى الائتلاف، بعد التنازعِ والاختلاف.

فقال: فضّ ختامَ قضيتِكم[1]، فأنا أذنٌ مصغية إليكم.

فقلتُ: لقد اختلفتُ مع صديقي هذا على القولِ في تعددِ الزوجات، وأيِّ الرأيين هو أولى في هذه الأوقات.

قال أبو الحارث: اسمعا مني، وخذا القول عني، ولعلكما قد أصغيتُكما إلى أصواتِنا قبلَ أن تلجا، وسمعتما حديثًا مزعجا؛ فإنّ لي امرأةً تكثرُ الخلاف، وتديمُ إلى الشجارِ الاختلاف، ولو كنتُ أعتمدُ على عصا الغضب، لقلتُ: إن الزواجَ على مثل هذه قد وجب، لكنني سأقضي في هذه القضيةِ بالقولِ الراجح، وأشيرُ فيها بالرأي الصالح، ولعلها تنصتُ الآنَ إلى الحديثِ المقول، وتتشوفُ لما سأبيِّنُ وأقول، فألقوا نحوَ ما أقولُ السمع، وانتظروا البيانَ والنفع.

قال الراوي: فأنشأَ أبو الحارثِ يقول: إنّ تعددَ الزوجات، من النعمِ الجزيلات، والمواهبِ السَّنِّيات[2]، والتشريعاتِ الحكيمات، تفضلَ اللهُ على الرجالِ والنساءِ بإجازتِه، وأكرمهم بتشريعِه وإباحتِه؛ لما له من كثرةِ الفوائد،

(1) افتحها، أي: تحدث عنها.

(2) العاليات.

وحَسنِ العواقبِ والعوائد.

فهو طريقٌ إلى تكثيرِ عددِ الأمةِ المحمدية، وتوسيعِ دائرةِ أتباعِ الشريعةِ الإسلامية، لا سيما ورحى الحروبِ مازالت تطحنُ الرجال، وتكثرُ عددَ الأراملِ ويتامى الأطفال، والعزةُ إنما هي للكاثر، والبقاءُ لقطارِ الإيلادِ السائر.

والتعددُ سبيلٌ إلى تمامِ العفافِ والصيانة، وإبقاءِ أنوارِ الطهرِ ناصعةً على جبينِ الديانة، فالنساءُ كثير، والشرُّ مستطير، وكم حبستْ العنوسةُ بين جدرانِها، وجرّعتْ نزيلاتِها همومَها وأحزانَها، وساقتْ إلى الانحرافِ ضعيفاتِ الإيمانِ والحياء، واستغلّهنّ الرجالُ اللؤماء الخبثاء، ولذلك كم امرأةٍ راضيةٌ اليومَ بربعِ زوجٍ حياتَها، قبل أن تلقى حِمامَها[1] ووفاتَها.

ألا تنظرونَ إلى الأرامل، اللاتي ذهب عنهن العائل، وفُقد الراعي والكافل، وبين أيديهن صبيةٌ ضعفاء، قد لا يجدون من يضمُّهم من الرحماء، ومتى بقوا عند أمهم جاعوا، وربما انحرفوا وضاعوا، فكم بالتعددِ سعدتْ امرأةٌ محرومة، وشُفيتْ به أخرى مهمومةٌ مكلومة.

والتعددُ سبيلٌ إلى الكفايةِ والثراء، وسببٌ لانتفاعِ الوالدِ بكثرةِ الدعاء، فمتى ما تعدّدَ زرعُه، ونما نسلُه وفرعُه، زادَ له الداعون، وكثر له الشافعون، وربَّ منزلةٍ علاها في الجنةِ بصلاحِ ولد، ما كان يُبلِّغُه إياها أحد.

(1) مماتها.

وكم بالتعددِ عزَّ الرجلُ وتقوّى، وبلغَ من الأماني ما يهوى، واشتدَّ شأنُه بتعددِ أصهارِه، وامتدادِ أعوانِه وأنصارِه.

ولو كان التعددُ شراً لما حاربَه أعداءُ الفضيلة، وشوّهَه خدناءُ[1] الرذيلة، فصارَ الانحرافُ الجنسيُّ اليومَ حريةً شخصية، وأصبحَ التعددُ مخالفةً قانونية، أو خروجًا عن العاداتِ المجتمعية!.

ويكفي التعددَ فضيلة، وكونُه خصلةً جليلة، أنه من سننِ المرسلين، وعملِ السالفينَ الصالحين، الذين ضربوا المثلَ في تعددِ النساء، وكثرةِ البناتِ والأبناء، وهم القدوةُ الصالحةُ في الرجال، والمثلُ الأعلى في الأعمالِ والأقوال.

أفلا تدري الزوجاتُ أن التعددَ خيرٌ لهن، وحصولُه يفيدُهن وينفعُهن، إذا كان على نهجٍ رشيد، وفكرٍ دافعٍ سديد؛ فالزوجةُ تعرضُ لها الأوجاعُ والأسقام، وتنتابُها المكارهُ والآلام، وهذه العوارضُ قد تُخبِيْ وهجَ الحبِّ والوئام[2]، وتولِّدُ التباغضَ والخصام، وتدفعُ غيرَ المتقين إلى الحرام.

وبعضُ الأزواجِ قد يحتاجُ إلى عنايةٍ كبيرة، وجهودٍ متعددةٍ كثيرة، والزوجةُ الواحدةُ قد تضعفُ عن تلك الحاجات، أو تعجزُ عن تلبيةِ كلِّ تلك الطلبات، ولو كان لزوجِها زوجةٌ أخرى أو زوجات، لحملتْ عنها كثيراً من المشقات.

قال الراوي: ثم أنشأَ أبو الحارثِ يقول:

---

(1) أصحاب.

(2) تسكن اشتعالهما.

قـلْ للرجـالِ إذا أزمعـتَ[1] نُـصحَهمُ — خـذوا الحقيقـةَ عنّـي دونمـا دجَـلِ
وحكِّمـوا العقـلَ والإيمـانَ واجتنبـوا — حُكـمَ العواطـفِ والتلبيسِ والوجلِ
لـم يـشرعِ اللهُ حكمًـا في شـريعتِه — إلا لـه حكمـةٌ مهديّـةُ الـسُبُلِ
إنّ التعـددَ في الزوجـاتِ منقبـةٌ — وزينـةٌ في سـماءِ العـزِّ للرجـلِ
ومغـرِسٌ يُنبـتُ الخيـرَ الكثيـرَ وفي — قطوفِـه قـرّةٌ في النـاسِ للمُقـلِ
كـمْ كُربـةٍ ذهبـتْ فيـه وكـمْ شُـفيتْ — في أُفْقِـهِ أنفـسٌ ظلّـتْ علـى عِلـلِ
وأسـعدَ اللهُ في أفيـاءِ[2] واحتِـه — وردَّ للطهـرِ مـن قـدْ كـانَ في زلـلِ
وبلَّـغَ المـرءَ مـا يرجـو وأورثَـه — نُعمى القناعةِ والراحاتِ والجذَلِ[3]

قال الراوي: ثم إنْ أبا الحارثِ التفتَ إلى صاحبي **وقال:**

إنّ الزوجةَ الواحدة، إذا كانت صالحةً مساعدة، تطاوعُكَ، ولا تنازعُك، وتعاضدُكَ ولا تعاندُك، وتكفيك ما تريد، وتنتهجُ[4] في البيتِ الدربَ السديد؛ فهي خيرٌ لك من إضافاتٍ إليها، وضراتٍ يجئن عليها.

فبالزوجةِ الواحدةِ يدومُ الوفاء، ويقلُّ العناء، وتندرُ المشكلات، وتنقصُ الخلافات، ويحصلُ تمامُ الأمنِ الداخلي في المنزل، وتكونُ الفوضى والخروجُ

(1) عزمت.

(2) ظِلال.

(3) **نعمى**: نعمة. **والجذل**: الفرح.

(4) وتسلك.

على الحاكم في معزل، ويسودُّ البيتَ الاستقرارُ والسكون، ويقلُّ الحسدةُ والواشون، ويبقى البيتُ مصونًا من كيدِ المرأةِ ومكرِها، وانتصارِها لغيرتِها وشرِّها، وتقلُّ معَ الزوجِ التحقيقات، وتسليطُ المراقبينَ والمراقبات، ولا يكثرُ التجسسُ على المكالمات، والاطلاعُ على الصورِ والرسالات.

ومع الزوجةِ الواحدةِ تقلُّ النفقات، ولا تكثرُ الحاجاتُ والطلبات، ولا تزالُ الزوجةُ حريصةً على الاكتفاءِ بالقليل، وتركِ الإسرافِ وطلبِ التبديل.

ومع الزوجةِ الواحدةِ تصبحُ أسرارُ الزوجِ في أمان، فلا يمتدُّ إليها عِلمُ الأقاربِ والأصحابِ والجيران.

ومع الزوجةِ الواحدةِ يضحي الزوجُ حُراً في أوقاتِه، غيرَ محاسبٍ على تأخرِه وتنقلاتِه.

وفي ظلِّ الزوجةِ الواحدةِ يراقبُ الوالدُ الأولاد، فيعرفُ الرائحَ منهم والغاد، والعابثَ والجاد، فلا يغيبُ عنهم فيغيبوا عن الرشاد، ويتنكبوا طريقَ الخيرِ والسداد. **ثم أنشد قائلا:**

واحدةً منَ النِّساْ بلا عددْ ... إذا أردتَ عيشةً بلا نكدْ[1]

ورُمتَ رأيًا للعقولِ ذا سددْ ... يهديك في نهجِ الزواجِ للرّشَدْ

في ظلِّها تُحلُّ أسبابُ العُقدْ ... وينطفيْ حَرُّ الهمومِ والكَمَدْ[2]

---

(1) بلا عسر.

(2) والحزن.

ويستقيمُ عندَها شأنُ الولدْ ويسهلُ الدواءُ إنْ داءٌ وردْ
فلا يُغامِرْ في النسا يومًا أحدْ إلا إذا قدرتَه حقًا وجدْ
فإنْ رأى صلاحَه معَ العَددْ مضى، وإلا مَرأةٌ إلى الأبدْ

قال الراوي: فلما رآنا، وتوسّمَ[1] في مرآنا، عرفَ أننا لم نظفرْ بحاجتِنا التي رُمنا[2]، ولأجلِها وفدنا عليه وجئنا؛ فقال: لعلكم تطلبون الفصلَ في المسألة، والخروجَ برأي في هذه المعضلِة، فخذوا الرأي بإيجاز، بعيداً عن التعميةِ والإلغاز، والتكنية والمجاز، فأنا لستُ مع القائلين بالتعددِ لكلِّ أحد، ولا المزهِّدين منه لمن قدرَ عليه ووجد، بل أنا مع التعددِ لمن كان عليه قادرا، ورأى له في نفسه سببًا داعيًا ظاهرا، وغدا التعددُ في حقِّه فضيلة، وسمةً حسنةً جميلة، وكان له دِينٌ يحجزهُ عن الميلِ والعدوان، وقلبٌ يتسعُ للصبرِ على النسوان.

أما إذا كانَ مع الواحدةِ سعيدا، ودجى المنغصاتِ عن بيتِه بعيدا، وزوجتُه حسنةُ التبعُل[3]، ساميةُ الوفاءِ والتجمّل، وقدرتُه لا تسعفُه على المزيد، وركوبِ قطارِ التعديد، أو كانت رغبتُه في التعددِ عن طفرةِ طيش، وعجلةٍ تحت سحابةِ رغدِ العيش، أو كانَ لمجاراةِ قريبٍ أو صديق، أو وثبةِ رحمةٍ على امرأة من قلبٍ شفيق؛ فإن التعددَ في حقِّه قد يصيرُ من العناء، ويصبحُ على حياتِه نوعًا من الشقاء، فقد يفقدُ بالزواجِ الجديد، عيشَه الماضيَ السعيد، ويهدمُ ما بنته السنونَ

(1) وتفرّس.

(2) طلبنا.

(3) مطيعة.

من السعادة، وتصعبُ عليه المراجعةُ والإعادة، فلا هو بالذي حافظَ على الجميلِ السابق، ولا بالذي سعدَ بالزواجِ اللاحق.

قال الراوي: فلما سمعنا هذه الخلاصة، العريّةَ عن البخلِ والخصاصة[1]، النديّةَ بالرأي السديد، والنصحِ الأمينِ الرشيد؛ شكرناه على ما بذلَ من حديثِه الشيِّق، وكلامِه المهذَّب المتأنِّق[2]، وودّعناه بالدعاء، وفارقناه بالمدحِ والثناء.

(1) الفقر والحاجة.

(2) الجيد المتقن.



المقامة الامتحانية

حكى مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: أضنتْ[1] جسميَ الغموم، وأرّقتْ عينيَّ الهموم، وصرتُ في ليلٍ غائرٍ[2] نجمُه، ونهارٍ كالحٍ[3] وجهُه، فولجتُ[4] بحارَ الأفكار، وقلتُ: لابدَّ من الدُّرِ ولو غار، فقادني ذاك التفكير، إلى إتيانِ عالمٍ بصير، مشهورٍ بالفكرِ الراجح، ومعروفٍ بالعملِ الصالح، وكنتُ قد قرأتُ في الكتابِ المصون: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل43]، فلما وصلتُ إلى دارِه، وموضعِ سكنِه وقرارِه، طرقتُ الباب، وهيأتُ السؤالَ لأنالَ الجواب، فأجابني حينَ طرقت، ورحّبَ بي إذْ نزلت.

فقال لي: ما الذي أتى بِك، وما نزلَ ببابِك؟

فقلتُ: يا من صِرتُم للأُمّةِ نِعْمَ المنهل[5]، وأزلتم عنها المُشكِلَ والمُعضَل، جعلكم اللهُ حرّاساً للدِّين، وغيثاً للظامئين، وأُساةً[6] للجاهلين، وكهفاً

---

(1) أمرضت وأهزلت.

(2) غائب وذاهب.

(3) عابس.

(4) فدخلت.

(5) المورِد.

(6) أطبّاء.

للسائلين، إني قد جئتُكم لأكشفَ عن نفسي كُربة، وأحوزَ بلُقياكمْ قُربة.

فقال: سَلْ عمّا بدا لك.

فقلت: نزلتْ بساحتي الغموم، وقيّدتني بأغلالِها الهموم، ورمتْ بي في الأَسر[1]، وزارتني بناتُ الدهر[2]، فهل تجدون لأسري من إطلاق، ولدياجي[3] حياتي من إشراق؟.

فقال: يا مسلمُ، لا تحزنْ بما دجى، وكنْ أخا تفاؤلٍ ورجا، واسمعْ مني دواءً شافيا، وحِرزاً واقيًا.

أما علمتَ أنك في هذه الدنيا في امتحان، وبالامتحانِ يُكرمُ المرءُ أو يُهان، سؤالاتُه معلومةٌ مقدَّمة؛ رأفةً ممن يختبرُك ورحمة، لكنْ للامتحانِ موضوع، فمرتفعٌ فيه أو موضوع[4]، وله أسئلة، ليستْ معضلة، وهناك أسبابُ نجاح، بها الفوزُ والفلاح، ومكانٌ أُعدَّ للاختبار، وتقديرٌ للناجحينَ الأخيار، وثمارٌ وفوائد، وجوائزُ وعوائد، أما عُنوانُ الموضوع، فهو الإيمانُ المشروع، الذي به يُمتحنون، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت2]، أما السؤالاتُ فهي المذكورات، في قولِ ربِّ الأرضِ والسماوات: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ

(1) القيد.

(2) بنات الدهر: المصائب.

(3) وليالي.

(4) ومنخفض.

وَالثَّمَرَاتِ﴾[البقرة155]، وفي قولِه جلَّ عما يصفون: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء35]، أما المكانُ الذي جُعِل للامتحانِ فهو هذه الحياة، ففيها الخسارةُ أو النجاة، فما دمتَ في عِدادِ الأحياء، فأنتَ معرَّضٌ للابتلاء، فلتأخذْ فيها الحذر، وتتزوّدْ منها قبلَ السَّفر، ولتصبرْ في دار الظَّعن(1)، قبل وصولِك إلى الوطن؛ لأنك ما دمتَ في أرضِ الغُربة، فأنتَ متنقلٌ من كربةٍ إلى كربة.

وأما أسبابُ التفوقِ المرغوب، ومراقي الوصولِ المطلوب، فهي في قول الله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[البقرة:153]، أما تقديرُ النجاح، وجائزةُ التقدم في الساح، فهي في قولِ اللهِ لمن يعوون: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة156–157]، فقولُ ذي النعمة: ﴿أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ تقديرُ امتياز، للسابقِ يومَ فاز، وقولُه تعالى: ﴿وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ درجةُ الشرف، فكُنْ ممّن عرف، وما انحرف، أما فائدةُ الاختبار، فكما قال العزيزُ الغفار في كتابِه المبين: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:3]، وفي قولِ ربِّ العالمين: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[العنكبوت:11]، أما ثمرتُه: فالاختبارُ كسبُ درجةٍ عاليةٍ في الإيمان، وتطهيرٌ للنفسِ من الكِبرِ والأدران، وهو مصدرٌ للحسنات، ومذهبةٌ للسيئات، يشدُّ العزائم، ويورثُ المكارم، ويصفِّي العقائد، ويكشفُ عن صدقِ العابد، فمن اختُبرَ صلُبَ عُودُه، وتحققتْ مع الأيامِ سعودُه، هذا في الحياةِ الدنيا، وأما في الحياةِ الأخرى، فكما قال ربُّ الأرباب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ

(1) الارتحال.

﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:10]، فلا يُقدَرُ للصبرِ على البلوى قدْر، ولا يحدُّ له ثوابٌ ولا أجر، وإنما هو فضلٌ عظيم، من الربِّ الكريم، **ثمّ أنشد:**

أفَمــا اتّعظــتَ بمــا سمعـــ ... تَ عـن الـبلاءِ المـستَطَرْ
ووعيــتَ مــا يُثنِيــك عـنْ ... خُلـقِ التـسخطِ والـضّجرْ
وعرفــتَ سُـنّةَ عيــشِنا ... دومــًا بــه خيــرٌ وشــرْ
لــستَ الوحيــدَ مـن العبــا ... دِ فكــلُّ عبــدٍ يُختبَــرْ
فــارددْ أمــورَك للكريــ ... مِ فإنّــه نِعــمَ الــوَزَرْ[1]
وارفــعْ يــديك وقــلْ لــهُ ... عبــدٌ أحــاطَ بــهِ الـضّررْ
فاكــشفْ عَنــاهُ وهــبْ لــهُ ... فرجًــا يُلملــمُ مــا انتشــرْ
وبــذا تعــيشُ مــدى الحيــا ... ةِ علــى النعــيمِ بــلا كَــدَرْ

قال الراوي: فلما سمعتُ نثرَه ونظمَه، وحُسَنَ ما وعظَ به وأتمّه، قلتُ: بلى واللهِ اتعظت، وعن تسخطي انزجرت، فشكرتُ له دواءَه، وعظّمتُ في نفسي سماءَه، وخرجتُ وقد سلختُ عنّي لباسَ الشكوى، وتلفعتُ[2] بثيابِ الصبرِ على البلوى، وأيقنتُ أنّ ما أصابني لم يكنْ ليُخطِئَني، وما أخطأني لم يكنْ لِيُصيبَني؛ فقدْ رُفعتِ الأقلامُ عن الكتابةِ بها، وجفّتِ الصحفُ عن الرقمِ[3] فيها.

---

(1) الملجأ والمعتصم.

(2) اشتملت.

(3) الكتابة.



المقامة التَّفسيرية

أَخبرَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قالَ: أصابتْ قلبي القساوة، ولمْ أعدْ أجدُ فيه للعبادةِ حلاوة، فلمْ أرَ لشفاءِ ما حلَّ به مِن داء، وكشفِ ما رانَ[1] عليه من غشاء[2]؛ إلا الفرارَ إلى المساجدِ التي تقامُ فيها حِلقُ الذِّكر، وتُداوى فيها أسقامُ القلبِ والفِكر.

فانطلقتُ إلى مسجدٍ جامعٍ بلا توان؛ رجاءَ أن أزيحَ عن فؤادي ما علاه من الرَّان، فولجتُ بيتَ الله، وصليتُ فيه ما شاءَ اللهُ، ثمّ يممتُ[3] زاويةً في المسجدِ تُلقى فيها المواعظ، وتُعلَّمُ فيها الأحكامُ والفرائض، فرأيتُ شيخًا قد احتوشتْه[4] عصبةٌ من السامعين، وأصغوا لحديثِه إصغاءَ الراغبين، فلما اقتربتُ من مجلسِ وعظِه، ولمْ يعدْ يخفى عليَّ رؤيةُ لفظه؛ إذا هو شيخُنا أبو الحارثِ الموسومِ بالتقوى والزهادة، والمشهورِ بالعلمِ والعبادة، فقلتُ لنفسي: خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري[5]، وادّكريْ[6] ما شئتِ أن تدّكري.

---

(1) رانَ: غطّى.

(2) غطاء.

(3) قصدت.

(4) أحاطت به.

(5) كناية عن الانبساط والراحة.

(6) واتعظي.

فـسلكتُ[1] نفـسي في سـلكِ الجمـعِ الـسامع، وأسـلمتُ للـشيخِ القلـبَ والمسامع.

فصادفتُه وهو يفسِّرُ آياتٍ من القرآن، ويُملي عنها ما يعلمُ من الإيضاحِ والبيان، فسمعتُه وهو يسوقُ أسبابَ نزولِ الآيات، ويشرحُ غريبَ ما فيها من المفردات، ويُجيلُ علومَ العربيةِ على ألفاظِها الرفيعة، وتراكيبِها وأساليبِها الفذّةِ البديعة، ويُجلِّي[2] لنا ما لها من عظمةِ الخِطاب، ويبيِّنُ ما فيها من الأحكامِ الآداب، ويختمُ بذكرِ المعنى العامِّ للآيات، وما تُشيرُ إليه من الدروسِ والهدايات.

فسمعتُ ما يجلو غشاوةَ[3] فؤادي، ويروي قلبيَ الصادي[4]، وتملّكني في ذلك المجلسِ العَجبُ العُجاب، لما سمعتُ من أسرارِ آياتِ الكتاب، وجمالِها الفائقِ الذي يأخذُ بالقلوبِ والألباب، فكم نقرأُ القرآنَ مُكثِرين، ونمرُّ بآياتِه غيرَ متدبِّرين، وكم تخفى عنا من كتابِ اللهِ معالمُ العظمةِ والإبداع، ومخايلُ[5] الأسرِ والإمتاع، وكم نُحرَمُ أثرَ القرآنِ في نفوسِنا، وزيادةَ الإيمانِ في قلوبِنا؛ بسببِ ضعفِ فَهمِنا لكتابِ ربِّنا، وغلبةِ الجهلِ علينا، وقلَّةِ بضاعتِنا في فسْرِ آياتِ

(1) فدخلت.

(2) ويكشف.

(3) غطاء.

(4) الظامئ.

(5) وعلامات.

الذكرِ الحكيم، وإدراكِ مقاصدِ هذا المسطورِ الكريم.

ثم إن الشيخَ أردفَ مقالَه السابق، بهذا الإغراءِ الرائقِ[1] فقال:

يا قُرّاءَ القرآن، وشُداةَ الحقِّ والإيمان، إن كتابَ اللهِ لا يكشفُ عن عظمتِه إلا علمُ التفسير، ولا يُبيِّنُ دقّةَ مسالكِه إلا نورُ السعةِ العلميةِ والتحرير، فهو العِلمُ الكفيلُ بشرحِ ألفاظِه ومعانيه، وتجليةِ مراداتِه ومراميه، وإحسانِ إيصالِ رسالتِه إلى البشرية، والتعريفِ الجليِّ بمُنزلِه ربِّ البريّة، فبمعرفةِ هذا الفنِّ الشريفِ تتضحُ السبيلُ للسالك، وتُعرفُ وجوهُ المعاطبِ والمهالك، وتُرى الجنةُ والنارُ رأيَ العين، وتُدرى حقيقةُ الدنيا قبل الحَين[2]، ويتجذّرُ في القلوبِ اليقين، وتبسُقُ[3] شجرةُ الإيمانِ حينًا بعد حِين، ويذهبُ عن العقولِ غبشُ الضلالة، وتنقشعُ عنها سحبُ الغفلةِ والجهالة.

ثم أنشأ يقولُ –ممتدحًا علمَ التفسير–:

عِلمٌ له الفضلُ والتقديمُ والعَبَقُ ... على العلومِ فكم يسمو ويأتلِقُ[4]

ترنو إليه على الآفاقِ منفرداً ... يميسُ بالعزِّ لم يُدركْ له أُفُقُ[5]

به انجلى قولُ ربِّ العرشِ وانكشفتْ ... أسرارُه وبدتْ من نورِه الطُرُقُ

---

(1) الخالص.

(2) الهلاك.

(3) وترتفع.

(4) **العبق**: الطِّيب. **يأتلق**: يضيء.

(5) **ترنو**: تنظر. **يميس**: يتبختر.

ورفرفت في الرُّبى أعلامُ ما اكتنزتْ ... آيُ الكتابِ ومُدّتْ نحوَها الحَدَقُ[1]

إنْ كنتَ تبغي الهدى فاسلكْ مسالكَهُ ... فإنـه النـورُ للأفهـامِ والألـقُ[2]

قال الراوي: ثمّ إني رفعتُ يدي مستأذنًا للسؤال، فأذنَ لي من غيرِ إعراضٍ ولا إمهال.

فقلتُ: نرومُ أن تحدثَنا عن كتبِ التفسير، على جهةِ التدقيقِ والتحرير.

فقال: خذْ على سبيلِ المثال، **وبه يتضحُ المقال:**

البحرُ المحيطُ في التفسير، **لأبي حيانَ** العالمِ النحرير، يجدُ راكبُ عبابِه[3] بيانَ معاني الآيات، من علومٍ متعددات، غيرَ أنه غلبتْ عليه الصناعةُ النحوية، والإطنابُ في الحديثِ عن الجوانبِ اللغوية، وردُّ الآراءِ الزمخشريةِ الاعتزالية، فخذْ من البحرِ المحيط، الدُّرَّ اللقيط، فإنّه الدرُّ المصون، من علوم الكتابِ المكنون.

وللرازيِّ التفسيرُ الكبير، تفسيرٌ متداولٌ شهير، أتى فيه بالمستملَحِ العجيب، ولم يسلمْ من المستهجنِ الغريب؛ فأحيانًا نراه يبدعُ في التعليلاتِ، ويمتعُ في ابتكارِ الاستنباطات، ويُسهبُ في ذكرِ الأحكامِ والاختلافات، ويرجحُ ذاكراً

(1) **الربى:** جمع رابية وهي ما ارتفع من الأرض. **اكتنزت:** جمعت. **الحدق:** العيون. والأصل أن الحدقة: السوَاد المستدير وسط الْعين.

(2) الضياء واللمعان.

(3) مائه الذي ارتفع موجه واصطخب.

بعضَ وجوهِ الترجيحات، ولكنه في أحيانٍ أخرى يخوضُ في العلومِ الرياضيةِ، والعلوم الفلسفية، والفلكية، ويوردُ الشبهاتِ عن أهلِها، ولكنّه يقصِّرُ في الجوابِ عنها وحلِّها، ومع الغثِّ[1] الكثير، في التفسيرِ الكبير، إلا أنه فيه علمٌ غزير، وغوصٌ إلى دقائقَ تفسيرية، وتعليلاتٍ علميةٍ لوذعية[2].

وللقرطبيِّ الجامعُ في أحكامِ القرآن، من يمّمَ محرابَه أدركَ ما فيه من الإجادة والإحسان، فهو تفسيرٌ فقهيٌّ جامع، وروضٌ علميٌّ ماتع، ساقَ فيه مسائلَ تلوَ مسائل، تحتوي على كثيرٍ من الفوائدِ والفضائل، من غيرِ غفلةٍ عن نكتةٍ لغوية، وفائدةٍ بلاغيةٍ أو نحوية، ولفتةٍ وعظية إيمانية، وهو مالكيُّ المذهب، غيرَ أنه إليه لا يتعصب، بل سلكَ فيه طريقةَ الإنصاف، عند ذكرِه المسائلَ والخلاف.

ولبرهانِ الدينِ البقاعيِّ نظمُ الدُّرر، في تناسبِ الآياتِ والسور، كتابٌ في بيانِ المناسبات، بين السورِ والآيات، سلكَ فيه مؤلِّفُه طريقة مبتكرةً في التفسير، وذكرَ من أسرار الآياتِ الشيءَ البديعَ الكثير، معتمداً في كثيرٍ من ذلك على التدبرِ وطول التفكير، وكثرةِ البحثِ والتنقير، غيرَ أنه لا يسلمُ في مواضعَ من التكلفِ، وسلوكِ طريقِ التعقيدِ والتعسف.

قال الراوي: أحسنَ اللهُ إليكم، وأسبلَ مزيدَ فضلِه عليكم، تعلمون ما في

(1) الرديء.

(2) تدل على ذكاء وفهم.

بعضِ كتبِ التفسيرِ من الجنوحِ[1] إلى التأويل، والميلِ لدى بعضها إلى التحريفِ والتعطيل، ولا يميزُ ذلك إلا من له قدمٌ راسخةٌ في المعتقدِ الصحيح، ومعرفةٌ مشرقةٌ بالأقوالِ والترجيح، فبمَ تشيرون في كتبِ التفسيرِ على عامةِ المسلمين، وعلى الضعفاءِ في معرفةِ العقيدة النقية بين المختلفين؛ ليرجعوا إليها، ويعتمدوا في بيانِ القرآن عليها، مما ليس فيه مزالقُ عقدية، وانحرافاتٌ علميةٌ منهجية؟

فقال: أحسنتَ في سؤالِ الاستعلام، وهاكَ الجوابَ على وجهِ النصيحةِ والإفهام.

إذا أردتَ ما طلبتَ فعليك بتفسيرِ الطبري: جامع البيان؛ فهو قمرُ السارين في تفسيرِ القرآن، ومؤلِّفُه شيخُ المفسرين، وأحسنُ من فسّرَ كتابَ الله من المتقدمين، وعلى كتابِه هذا اعتمادُ من جاءَ بعدَه من المتأخرين، مع سلامةِ منهجِه الاعتقادي، وصحةِ طريقِه الإرشادي، فهو على طريقِ السلفِ قد درج[2]، وما على مسلكِهم قد حادَ وخرج، فقد أبدعَ في بيان الآيات، ولم يشبْ[3] تفسيرَه بما فعلَه غيرُه في تأويلِ الصفات، والاعتمادِ على الإسرائيليات والموضوعات.

وإذا كان تفسيرُ الطبريِّ ممتدَ الغاية، بعيدةً عن القارئين فيه النهاية؛ لما ساقَ

---

(1) الميل.

(2) مشى.

(3) يخلط.

فيه من الأسانيدِ والروايات، وكثرةِ إيرادِ الأقوالِ والاختلافات؛ فعليك بتفسيرِ ابن كثيرٍ الذائعِ الصيت[1]، فهو أولى ما به عُنيت، المسمى بتفسيرِ القرآنِ العظيم، فأعلامُه تخفقُ بالبيانِ الكريم، وتبرقُ راياتُه بالمنهجِ المستقيم، جاءَ على اختصارٍ بديع، وأسلوبٍ تفسيريٍّ رفيع، وتنقيحٍ وتحرير، وترجيحٍ بين الأقوالِ في التفسير، وقد أتى مصحوبًا بأحكامٍ حديثية، وفوائدَ شيّقةٍ علمية، ونصائحَ حسنةٍ إرشادية.

وقد اختصر من الطبري وأفاد، وزادَ عليه أشياءَ فأجاد، فهو بهذا متدفّقُ السلسل، نقيُّ المنهل، يُعنى بالتحريرِ والترجيح، والتدقيقِ والتصحيح، وإن كان قد فوّتَ تفسيرَ بعضِ الألفاظِ والآيات، وساقَ بعضًا من المردودِ من الروايات، غيرَ أن ذلك لا يُعكِّرُ صفوَه، ولا يُعدُّ كبيرَ هفوة، توجبُ له عندَ القارئين الجفوة.

وإن أردتَ ثالثةَ الأثافي فيما تقصد، لتكونَ على ثلاثتِها تعتمد، فخذْ للسعدي: تيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنان، فإنه قريبُ المادةِ إلى الأفهام، يفيدُ منه الخاصُّ والعام، مع عنايتِه بتقريرِ المعتقدِ السليم، ودعوتِه إلى سلوكِ النهجِ القويم، مع تفردِه بكثرةِ الفوائدِ المستنبطةِ من قصصِ القرآن، وردِّه المكذوبَ والضعيفَ في التفسيرِ في بعضِ الأحيان.

قال الراوي: وماذا عن الزمخشريِّ في الكشاف، وما قيلَ فيه بين الناسِ من الاختلاف.

---

(1) الذكر الحسن.

فقال: كتابُ: "الكشافُ عن حقائقِ التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"؛ كتابٌ قد كثرَ فيه الكلام، واشتدَّ حولَه الخصام؛ بين غالين جعلوه نقيَّ الإهاب، سليمًا من النقصِ والعاب[1]، معتقدين أنه لا عيبَ فيه إلا أنه في سماءِ البيانِ بدرُها المنير، وراقمُه[2] أبو بجدتِها[3] في الكشفِ والتفسير، وبين قالين عدّوه كتابَ ضلالٍ بإطلاق، ومهمهَ[4] حيرةٍ مظلمةً ليس فيها هدايةٌ وإشراق، فلا خيرَ فيه إلا أنه يلوي أعناقَ النصوصِ إلى مذهبِه الباطل، ويقذعُ[5] في القولِ على مخالفِه في هذه المسائل، ويُسخِّرُ اتساعَه اللغوي، وذكاءَه الفطري، في تمريرِ معتقده الواهي في تفسير الآيات، فلا ينتبهُ له إلا ذوو العقولِ المشرقات.

والحقُّ وسطٌ بين الغلاةِ والجُفاة، الذين أضرموا حولَ الكشافِ نيرانَ المعاداة.

فنقولُ: إن كتابَ الكشافِ نسيجُ وحدِه[6] في البلاغةِ والبيان، في بيانِ معاني آياتِ القرآن، وكشفِ ما يستكنُّ[7] فيها من الأسرار البديعة، والتعبيراتِ العربيةِ

---

(1) والعيب.

(2) وكاتبه.

(3) **البجدة:** حقيقة الأمر وباطنه. وَهُوَ ابْن بجدتها الْعَالم بالشَّيْء المتقن. وَأَصله الدَّلِيل الْهَادِي فِي الصَّحرَاء وَمن لَا يبرح عَن قومه.

(4) صحراء بعيدة.

(5) ويشتم.

(6) لا نظير له.

(7) يستتر.

العاليةِ الرفيعة، وكلُّ من جاءَ بعدَه فهو في هذا البابِ عالةٌ عليه، ومفتقرون في بيانِ ذلك إليه، ولا يُنكرُ ذلك إلا جاحد، ولا يهضمُه هذا الحقَّ إلا حاسدٌ حاقد.

غيرَ أنه حشاه باعتزالياتِه الكثيرة، وحملتِه على الخصومِ بجرأةٍ كبيرة، ولم يسلم أيضًا من الإكثارِ من إيرادِ الرواياتِ الضعيفةِ والموضوعة، وتبنِّي بعضِ الأقوالِ الشاذةِ والموضوعة.

فهو مَعينٌ رقراقٌ لولا كدرُه، وأفقٌ تفسيريٌّ رحبٌ لولا قترُه، غيرَ أن بعضَ أهلِ العلمِ قد زبروا [1] عليه حواشيَ متكاثرة، تبينُ انحرافاتِه الخفيةَ والظاهرة، فمن استنارَ بمصابيحها المشرقة، فليلجْ إلى هذه الروضةِ المونقة[2]، ومن كان جاهلاً بالمعتقدِ الصحيحِ، غيرَ عارفٍ في التفسيرِ بين المرجوحِ والرجيح، فليعدِلْ عن هذا الكتابِ إلى سواه، وفيما ذكرنا قبلُ مطلوبُه ومبتغاه.

قال الراوي: فقلتُ: فهل في المتأخرين من المفسرين من أبدعَ في تفسيرِه، وأجادَ في تحريرِه وتنويرِه، وتقدّمَ في هذا الفنِّ على نظيرِه، وأتى من أضواءِ البيان، ما انجلتْ به آياتُ القرآن؛ لأننا نسمعُ من يقولُ: ما ترك المتقدِّمُ للمتأخر، وما يدركُ مِن شأوِ[3] السابقِ المتعثر؟

فقال: إن فضلَ اللهِ لا يختصُّ بزمانٍ دونَ زمان، ولا يستقلُّ به إنسانٌ دونَ

---

(1) كتبوا.

(2) المُعْجِبة.

(3) غاية.

إنسان، مهما تبدّل الأوان، وتغيّرَ المكان، فكم أربى[1] الخالفُ على السالف، وزادَ الواكفُ[2] على ما تقدّمه من واكف.

فهذا الشنقيطيُّ في أضوائِه، قد بزَّ[3] فيه جميعَ نظرائِه، في تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، وتأصيلِ القولِ التفسيريِّ بعلمِ الأصول، وبيانِ اعتضادِ المنقولِ بالمعقول، والترجيحِ بين الأقوالِ التفسيرية، بناءً على قواعدَ أصوليةٍ ولُغوية، وتحريرٍ بديعٍ لبعضِ المسائلِ الخلافية.

وذاك قَرِيعُ دَهْرِه، وَوَاحِدُ عَصْرِهِ في فنِّ التفسير، صاحبُ التحريرِ والتنوير، ابن عاشورٍ الذي سمى تفسيره:" تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسيرِ الكتاب المجيد، واختصرَ اسمَه بما تقدّم، ونافَ[4] بتفسيرِه هذا وتقدّم.

فقد جاءَ في هذا السفرِ المسفرِ بعلمٍ غزير، وتنويرٍ وتحرير، فهو دائرةُ معارفَ ما أكثر ما فيها من العلوم، ودوحةٌ فيحاءُ[5]، وروضةٌ غنَّاءُ[6] للألبابِ والفهوم، يغوصُ في التفسيرِ إلى المعاني الدقيقة، ويسوقُ الحديثَ عنها بأساليبَ بديعةٍ رشيقة، فلا يدعُ آيةً إلا أروى الظامئ من بيانِ معانيها، وتجليةِ مستورِها وخوافيها، قد عبَّ من علومِ العربيةِ حتى تزيّنَ تفسيرُه بأزهارِها، وتروّى من

(1) زاد.

(2) الْمَطَر المنهل.

(3) غلب.

(4) وارتفع.

(5) الدوحة: الشَّجَرَة الْعَظِيمَة المتشعبة ذَات الْفُرُوع الممتدة من شجر مَا. والفيحاء: الواسعة.

(6) كثيرة الشجر.

علومِ الشريعةِ حتى بدا ذلك في كشفِ أسرارِها، وله يدٌ طولى في علومٍ أخرى قد يستدعيها المقام، ويعتضدُ بالاستعانةِ بها تمامُ الكلام، لاسيما وكتابُه هذا قد نالَ حظًا وافراً من التحرير، وبقيَ أمداً على مسنِّ[1] التروِّي[2] والتفكير؛ حيثُ مكثَ في تأليفِه أربعينَ عاما، إلا أشهراً وأياما.

غيرَ أنه عملُ بشرٍ لا يسلمُ من النقصِ والخلل، ولا يبقى على أفقِ السلامةِ من الخطأِ والزلل.

ففيه تأويلاتٌ مردودات، وأقوالٌ ضعيفةٌ مرجوحات، وغيرُ ذلك مما يدركُه القارئ المتيقظ، والمتتبعُ المتحفّظ[3].

فأجزلَ اللهُ لمفسرينا الثوابَ الجليل، وغفرَ لهم الزللَ الكثيرَ والقليل.

قالَ الراوي: ثم أنهى أبو الحارثِ حديثَه ووقف، وكفّ قطرُه المتدفقُ بعدما وكف.

فجئتُ بعد هذا إليه، وسلمتُ بشوقٍ عليه، وودعتُه بالدعاء، ووعدتُه بتكرارِ اللقاء، وأبتُ إلى رحلي وقد انجلتْ قساوةُ الفؤاد، وتحلّى الحجا[4] بأنوارِ المعرفةِ والإرشاد.

---

(1) المسن: كل مَا يسن بِهِ أَو عَلَيْهِ.

(2) التمهل والنظر والتفكر.

(3) المتحرز.

(4) العقل.



المقامة التجويدية

قالَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: صليتُ ذاتَ يومٍ في مسجدٍ جامع، غاصٍّ[1] بالساجدِ والراكع، وممتلىءٍ بكثرةِ الذاكرين والتالين، وآهلٍ بزُمرٍ[2] من المتعلمين الراغبين، فلما تحلّلنا من الصلاةِ بالسلام، وقضينا الأذكارَ بانتظام، قامَ شيخٌ على كرسيٍّ موضوع، فتحلّقتْ به تلك الجموعُ بأدبٍ وخشوع، فشرعَ في حديثِه إليهم، وإملاءِ نصائحِه عليهم.

فلما توسّمتُ في سُحنتِه[3]، وألقيتُ أذني لعبارتِه، عرفتُ أنه شيخُنا أبو الحارثِ بلا امتراء، وربُّ البيانِ المعهودِ بلا خفاء، فكرهتُ أنْ أقطعَ حديثَه بالتعارفِ في خضمِ هذا الاجتماع، وألزمتُ نفسي شعارَ التنكرِ وإبداءَ الاستماع.

فكان مما قال:

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ القرآنَ ربيعًا للقلوب، وجعلَ تلاوتَه طريقًا إلى كثرة الأجورِ وإحراقِ الذُّنوب، وأحلَّ به أهلَه المنازلَ العالية، وبلّغهم بالعملِ بمواعظِه الغاياتِ الحميدةَ السامية، والصلاةُ والسلامُ على من نزّلَ اللهُ عليه

(1) ممتلئ.

(2) معمور بجماعات.

(3) هيئته.

القرآن، هدىً للناسِ وبيناتٍ من الهدى والفرقان، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلى أصحابِه ومن سارَ على سنتِه ومنوالِه.

أما بعد:

فيا أيها القُرّاء، اعلموا أنكم حملةُ الإيمانِ والضياء، ومعارجُ السَّنا والسَّناء[1]، وبكم تُحفظُ الأمانة، وبصلاحِكم تبقى الدِّيانة، وبجِدِّكم في هذه السبيلِ ينقشعُ الدّجى، وتتسعُ دائرةُ الهدى.

فجوِّدوا كلامَ ربِّكم حقَّ تجويدِه، وامتثلوا أوامرَه وقفوا عند حدودِه، وألبِسوا قلوبَكم تعظيمَ وعدِه ووعيدِه، وأعطوه حقَّه ومستحقَّه من إجلالِه وتمجيدِه، وأظهروا للناسِ استعلاءَ هذا الكتابِ على ما سواه، واستفالَ غيرِه إذا قورنَ به في سموقِ[2] الشأنِ وعُلاه، وأديموا الصِّلةَ به ولا تقطعوه، وكرّروا تلاوتَه ولا تهجروه، ولا تقلبْكم عنه قلقلةُ محنة، ولا تفشي فتنة، ولا استطالةُ بلاء، ولا صفيرُ ضوضاء، وإيّاكم والانحرافَ عن تمكينِ أثرِه في الجَنان، وإقلابَ مقاصدِه في الجوارحِ واللسان، واحذروا الرخاوةَ في الأخذِ به في إصلاحِ الأقوالِ والأفعال، والسكونَ عن القيامِ بحقِّه في جميعِ الأحوال.

ومتى كانت لحربِ همومِكم عليكم شَدّة، وامتدتْ أضرارها على راحتِكم مَدة؛ فاهرعوا إلى القرآنِ تجدوا فيه المخارجَ من اللأواء[3]، والانفتاحَ من

---

(1) **السَّنا**: الرفعة. **والسَّناء**: الضياء.

(2) علو.

(3) الشدة والضيق.

أغلاقِ البلاء.

ثم قال: يا أهل القرآن، مدُّوا حبلَ الاتصالِ بربِّكم الجليل، واقطعوا سببَ هواكمُ الطويل، وأدغِموا الخطايا في السترِ بلا مجاهرة، وأخفوا لكم خبايا أعمالٍ ينفعُكم ظهورُها في الآخرة، واقلبوا ظهر المجنِّ[1] لوصل الشهوات، ولازموا تقوى اللهِ في كلِّ الحالات، فليس لكم عنه عوضٌ يُنجيكم من مُرِّ الشقاء، ولا بدلٌ يُنجدُكم من لظى العناء، وتجنّبوا اللحنَ في أعمالكم؛ فإنه أشدُّ من اللحنِ في أقوالكم، واستعيذوا باللهِ من غفلة لا صحوَ بعدَها، ومن ضمّةِ خطيئةٍ لا انفكاكَ عندَها، ومتى مُدّ أليكم حبلُ قربةٍ فاتصلوا، وحيثما بدا لكم سببُ معصيةٍ فانفصلوا، واعلموا أن الوقفَ عن نصرةِ المظلومِ-مع القدرةِ- وقفٌ قبيح، والابتداءَ بنصرتِه إخراجٌ من جوفِ عنائِه، وظفرٌ بحسنِ ثنائِه ودعائِه.

فاسمعوا مني هذه النصائحَ وعوها، واعملوا بخيرٍ رأيتموه فيها وبلِّغوها، فأنتم همزةُ وصلٍ بيني وبين من غاب، رزقني اللهُ وإياكم متصلَ الأجرِ والثواب، وجعلنا من السعداءِ في الدنيا ويوم المئاب.

ثم أنشأ يقول:

يا حاملَ القرآنِ أنتَ على الورى تاجٌ يضيءُ بأجملِ العقيانِ[2]

(1) **المجن**: الترس. **وقلب له ظهر المجن**: عَادَاهُ بعد مَوَدَّة.

(2) **العقيان**: ذهب متكاثف فِي مناجمه خَالص مِمَّا يخْتَلط بِهِ من الرمال وَالْحِجَارَة.

بـك قـدوةٌ للنـاظرين فكُـنْ لهـا ... في موضـعِ الإتقـانِ والإحـسانِ
لِـنْ في الحـديثِ ولا تكـنْ متقاربًـا ... مِـن شـدةِ الأقـوالِ للإخـوانِ
واهمسْ بنصحِكَ في الخفاءِ لمذنبٍ ... متجنبًـا للجهـرِ والإعـلانِ
وخـذِ الأمـورَ لكـي تكـونَ مـسدَّداً ... بتوسـطٍ تَـسلمْ مـن الخِـذلانِ
واسـتعلِ عـن دركـاتِ كـلِّ دنيّـةٍ ... لا تـستفِلْ بالحقـدِ والأضـغانِ
وانهـضْ إلـى طُـرُقِ انفتاحِـكَ كلّمـا ... حافظـتَ فيـه علـى هُـدى الـرحمنِ
ومتـى نحـا نحـوَ التفلّـتِ والـشقا ... أطبِـقْ هـواكَ بعزمـةِ الإيمـانِ
واسـكُنْ إذا كـان الـسكونُ محبَّبًـا ... في شِـرعةِ الـديّانِ ذيْ الـسلطانِ
وإذا التحـركُ كـانَ أفـضلَ في النُّهـى ... فاسـلكْهُ دون تـرددٍ وتـوانِ
فخّـمْ متـى ألفيـتَ حُـسنَ مآلِـه ... يغريـك بـالتفخيمِ في أوطـانِ
وإذا غـدا الترقيـقُ خيـرَ وسـيلةٍ ... رقِّـقْ ففـي الترقيـقِ نيـلُ أمـاني
ومتـى رأيـتَ لـدى مخالطـةِ الـورى ... وصـلَ الجميـعِ فـصِلْ بـلا نكـرانِ
ومتـى وجـدتَ القطـعَ أجـدى نفعُـهُ ... فـاقطعْ تـصلْ أبـوابَ كـلِّ أمـانِ

فلما انتهى من نثرِه ونظمِه، وزكاةِ علمِه وفهمِه، انصدعَ الجمعُ المحتفلُ(1) لـه بالـدعاء الغزيـر، والـشكرِ الجزيـلِ الكثيـر، فأتيتُـه فـسلمتُ عليـه وصـافحتُه، وعرفني بعد أن عرفتُه، فقلتُ له: ما أحسنَ تـصرُّفَك في العلـوم، وأعظـمَ قـدرتَك

(1) المجتمع.

في سبي[1] الألبابِ والفهوم، ولكن ما أجملَ توظيفك لمصطلحاتِها في إصلاحِ الإنسان، وزجرِه عن حمأةِ[2] الانحرافِ والعصيان!

فدعا لي دعوةَ صالحٍ تُرجى إجابةُ دعوتِه، ويُفرحُ بخروجِها من شفتِه، ثم إني ودعتُه والقلبُ يطلبُ طولَ البقاء، واغتنامَ ما عنده من العلمِ وحسنِ الدعاء.

---

(1) أسْر.

(2) **الحمأة:** الطين الأسود المنتن.



حكى مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: كنتُ في يومٍ ما في سُوق، فسمعتُ نداءَ الصلاةِ بصوتٍ يروق[1]، فحملتُ نفسي لإجابةِ النداءِ على عَجَل، والنهوضِ إلى الصلاةِ بغيرِ مهل، فما أنِ انتهينا من صلاتِنا المكتوبة، وأردفناها بالصلاةِ المندوبة، حتى رأيتُ جموعًا مجتمعة، في حلْقةٍ مستديرةٍ متّسعة، قد تصدّر فيها ذو هيئةٍ حسنة، وجلسَ فيها جلسةً متمكنة، ثم شرعَ في حديثِه قائلا:

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ القرآنَ بالعربية، وأخلصَهُ من جميعِ الألسنةِ الأعجمية، فكانَ بالعربيةِ التي هي أجمعُ اللغاتِ وأوسعُها، وأحسنُها وأبدعُها، وأتمّها وأكملُها، وأوفاها وأشملُها، لغةٌ لا يزيدُها مرورُ الزمانِ إلا جِدّة وألقا[2]، ولا يصنعُ فيها تعددُ اللُغى إلا سمواً وعبقا.

لا يعتريها ما يعتري اللغاتِ سواها من الضعفِ والقصور، ولا يصيبُها ما يُصيبُ غيرَها من التغييرِ والامحاءِ بسيرِ الدهور، فهي قرينةُ الخلودِ والبقاء، العصيّةُ على المحوِ والفناء .

---

(1) يعجب.

(2) حداثة ولمعانا.

فلله الحمدُ على نعمتِه علينا بهذه اللغةِ السامقة[1]، التي تتزينُ بها الألسنةُ الناطقة.

أما بعد:

فإن هذه اللغةَ ذاتُ فنونٍ كثيرة، وأقسامٍ لغويةٍ وفيرة، لكنّ النحوَ فيها هو الأساسُ والعماد، وزينةُ المتحدِّثِ في كلِّ ناد، يرفعُ صاحبَه ويُعليه، ويمنحُه الفضلَ ويُعطيه، ويتوّجُه بتاجِ الهيبةِ أينما حَل، وترمقُه عيونُ التبجيلِ في كلِّ محل، يحكمُ على العلومِ بعدلِه، ويسمو عليها بعلو كعبِه وفضلِه، فهي إليه مفتقرةٌ في كل آن[2]، ولا تستغني عنه في جميعِ الأزمان، فهو طبيبُها الآسي[3] من الأدواء، وطريقُ بدوِّها بالرونقِ[4] والبهاء.

فمَن جفاهُ عاشَ في ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعض، ولم يسلمْ عرضُه من السُخريةِ والخفض، ومن نأى عنه اشتبهتْ عليه مقاصدُ الخطاب، وأظلمَ فهمُه لنصوصِ السُنّةِ والكتاب، ورافقَ عملَه البعدُ عن الصواب، ومتى تكلّمَ جارَ في أحكامِ الكلام، وبغى بجهلِه على الأفهام، وسلبَ الحقوقَ من أربابِها، وأعطاها غيرَ أصحابِها؛ فيأتي إلى الفاعلِ فيسلبُه علامةَ رفعِه، ويُحيلُه عن منهجِه وشرعِه، ويمرُّ بالمفعولِ به فيجدُه بنصبِه سعيدًا فرِحا، فيُسلِّطُ عليه لحنَه فيتركُه مغمومًا

(1) العالية.

(2) وقت.

(3) المعالج.

(4) بالحسن.

تِرحا[1]، وإذا ولجَ مدنَ كان وأخواتِها الناسخات، وإنّ وأخواتِها المبنيات، وظنّ وأخواتِها الناصبات؛ أحدثَ فيها مجازرَ نحوية، ورمى سلامتَهن بلحونٍ دموية، وإذا كتبَ صاحَ من خطئِه جمعُ الذكور، وضجّتْ من عُدوانِه الأسماءُ بين السطور، واستغاثتْ من جناياتِه الأفعال، واستعاذتْ من خطِّه المفاعيلُ والأحوال.

إذا قالَ قولاً شوّهَ اللحنُ قولَهُ ... وألبسَهُ يومَ النضارةِ بالسَّمَلْ[2]
وإنْ أسمعَ الآذانَ ضجّتْ وولولتْ ... ونادتْ بغوثٍ مِن جنايتِهِ الجُمَلْ
يَضيقُ به الصدرُ الرحيبُ وتَنزويْ ... وتهفو[3] إلى القلبِ السآمةُ والمللْ
ونعجبُ إيْ واللهِ من كلِّ لاحنٍ ... يُصِرُّ على عشقِ المكوثِ على الزّللْ
ويأبى دروسَ النحوِ بالكِبْرِ والونَى ... ليرضى ملامَ الناسِ والنبزَ بالخَطَلْ[4]

قال الراوي: ثم إنه سكتَ قليلاً متأمِّلا، حتى عاد إلى مقالتِه عجِلا، **فقال**:

أيها الأخُ الحبيب، العاقلُ الأريب، اسمعْ نصيحةَ وادٍّ يسوقُ لك جواهرَ القولِ بلا مَنّ، ويُهديكَ حُللَ الإرشادِ من غيرِ ثمن: كُنْ كالأسماءِ ثباتًا على الحقِّ الساطع، مبنيًا عليه مهما تقلّبَ الواقع، لا تُغيرُكَ الأزمنةُ عن رسوخِ مبادئِك، ولا تحوِّلُك الأمكنةُ عن صحيحِ قناعتِك، ولا حرجَ من أن تكونَ

(1) حزينا.

(2) **النضارة**: الحسن. **والسمل**: البالي.

(3) **تنزوي**: تتجمع. **وتهفو**: تسرع.

(4) بالخطأ.

متصرِّفًا في الشؤونِ القابلةِ لتعددِ الآراء، وإياكَ أن تكونَ فيها جامداً فتؤوبَ بالهزءِ والازدراء[1].

وكُنْ مع أخيك كالمضافِ والمضافِ إليه؛ يعتمدُ عليك وتعتمدُ عليه، ملازمًا على ضمِّ عُنواناتِ الوفاء، وكسرِ قيودِ الهجرِ والجفاء، وجزمِ عروقِ الغدرِ والخيانة، ونصبِ بناءِ الأُخوّة على الصدقِ والأمانة.

والزمْ معه طريقةَ (هَلُمَّ) عندَ الجمهور، في جميعِ تصاريفِ الأحوالِ والأمور؛ في السراءِ والضراء، والشدةِ والرخاء، لا تبدِّلُك العواملُ ولا الإضافات، ولا المصالحُ والسياقات.

ومتى نشبتْ[2] فتنةٌ فكنْ مبنيًا على السكون، وإياك والحركةَ فيها؛ فإنها شعبةٌ من الجنون، وكنْ فيها ممنوعًا من الصرف، نائيًا عنها في كهفِ حرف، و(مهما) اختلفوا فيها فرجِّحْ مذهبَ الحرفية، ولو خالفتْ الجمهورَ في هذه المسألةِ النحوية.

وإذا أردتَ الانضمامَ إلى جمعٍ فابحثْ عن جمعِ المذكَّرِ السّالم؛ لأنّ العيشَ في ظلالِه يحميك من المغارم، ويُنيلُك السلامةَ والمغانم، وإياكَ وجمعَ التكسيرِ ولو كان له في الأبنيةِ عددٌ كثير، واحذرْ جمعَ المؤنثِ السالمِ من الرجال، الذين استعاروا زيَّ ربّاتِ الحِجال[3]، ولو وُصفَ هذا الجمعُ بالسلامةِ

(1) والانتقاص.

(2) ثارت.

(3) **ربات الحجال**: النساء. **والحجال**: الخلاخيل التي يلبسنها.

فسلامتُه لأهلِه من النساء، وليس لمن تشبّهَ بهنّ من الغثاء[1].

وليكن لك في الحياةِ موقعٌ من الإعراب، وأثرٌ صالحٌ في المشهدِ والغياب، فإنْ رأيتَ خيرًا فكن به ضميرًا متصلا، ومتى رأيتَ شراً فكن عنه ضميرًا منفصلا، وابرُزْ إن كان بروزُك يكسِبُك حمداً وخيرا، واستترْ إذا كان استتارُك يمنعُ عنك ذمّاً وشرا.

وقدِّرْ حركاتِك في زمانٍ أو مكانٍ يؤذيك فيه ظهورُ الحركات، ويُصلحُ أمرَك تقديرُها مع جميعِ العواملِ والسياقات.

وعِشْ مرفوعَ الهامَة[2]، حذِراً من الخفضِ بأيّ علامة، وتحرّكْ في سبلِ الخيرات، حذرِاً من جوازمِ الطرقات.

وكنْ في رياض الخيرِ معرفةً لا تخفى عن الناظرين، ولا ترضَ ببيعِ تعريفِك بالرياءِ للمشترين، فتصبحَ نكرةً عند اللهِ وعند صالحي المخلوقين.

واعلمْ أنك إن أحسنتَ الصلةَ بربِّك الكريم، صرتَ موصولاً بفضلِه العميم، وهذا عائدُ صلتِك في دنياك، وأعظمُ منه عائدُها في أُخراك.

وإذا قصدتَ آفاقَ الخصالِ الحميدة، والشمائلِ العذْبةِ السديدة، فكن كـ(ال) الاستغراقية التي لا ترضى بالقليل، ولا يردُّ نهمتَها إلا الكثيرُ الجليل.

وتجرّدْ عن أسبابِ العلة، فإنها تُكسِبُ الصغارَ والذلّة، وإياك أن تكونَ قابلاً

(1) الأراذل.

(2) الرأس.

للترخيمِ في إيمانِك، راضيًا بدخولِ حرفِ علةٍ إلى صحيحِ إيقانِك، ولا يخدعنك الواعدُ بلغةٍ من ينتظرُ عودةَ ما أُخذَ منك بعد أوان[1]؛ فإن من رخّمَ دينَه قد لا ينفكّ عن استمرارِ الترخيمِ والذوبان.

واحذرْ نواسخَ الأخلاقِ المستقيمة؛ من قنواتٍ ملهيةٍ أثيمة، أو مواقعَ مثيرةٍ للغرائزِ الكامنة، أو صفحاتٍ خادعةٍ فاتنة.

وإن تعرّضتْ لك تلك الطرقُ إلى الذنوب، فتذكّرِ الخوفَ من علّامِ الغيوب، وقلْ لنفسِك:

صَاحِ شَمِّرْ وَلاَ تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوْ ... تِ فَنِسْيَانُهُ ضَلاَلٌ مُبِينُ

فإن نجوتَ من شرَكِها المُهلِك، وعذابِها المنهِك، فافرحْ بنفسِك التي بلغتْ في الخوفِ أعلاه، وادعُ لها كما دعا ذو الرُّمة لميّاه- لتبقى عامرةً بهطلِ التقوى، سالمةً من سيطرةِ جدبِ البلوى-:

أَلاَ يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى البِلَى ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاًّ بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

وإذا وعدتَ فأكّدْ وعدَك، وإياك من أن تخلفَ عهدَك، وإذا عصيتَ فاستدركْ نفسَك بالتوبة، ولا تسوِّفْ في تعجيلِ الأوبة، وإذا رأيتَ خيراً لا تقدرُ على الوصولِ إليه فتمنّ أنك من أهلِه الفاعلين؛ فإنك بنيتِك الصالحةِ تبلغُ أجرَ المباشرين.

---

(1) وقت.

قال الراوي: ثمَّ أنشأَ يقولُ:

كـنْ أنـتَ في فعـلِ المكـارمِ مبتـدا ... واصدحْ[1] إلى تلك المقاصدِ بالندا
وارفـعْ منارتَهـا بفتحِـكَ بابَهـا ... وانصِبْ به دربَ الضيا لمن اهتدى
واصـرِفْ جمـودَ القاعـدينَ فربّمـا ... ذهـبَ الجمـودُ بمـا رأوا وتبـدّدا
أنـتَ المـضافُ إليـه جـاء مـضافُه ... مـن تـابعٍ بِـك قـد غـدا مسترشِدا
كـمْ فاعـلٍ للخيـرِ أنـتَ رفعتَـهُ ... وشـغلتَه عمـا يـصيرُ بـه سُـدى
فـرأى الإشـارةَ منـك تَبـرقُ نحـوَهُ ... فهفـا إلـى تلـك الفـضائلِ واقتـدى
طـوبى لمـن أغـرى البريّـةَ بالهـدى ... وغـدا علـى سُـبُلِ الهدايـةِ مبتـدا

قال الراوي: ثم إنه ختمَ مجلسَه العامر، وحديثَه العذبَ الطاهر، داعيًا بهذه الدعواتِ الجامعة، ومختاراً هذه الكلماتِ النافعة، فقال:

اللهم ارفعْ مقامَنا عندك، وامنحنا –على علّتنا– فضلَك ورفدَك، واجعلْنا بنعمِك موصولين، وبطاعتِك عن معصيتِك مشغولين، واعصمْنا من أنْ يتنازعَنا عنك الاشتغال، بالأهلِ والبنينَ والأموال، وارزقنا التمييزَ بين خيرِ الخيرين، وشرِّ الشرّين، وامنعنا من الانصرافِ إلى الغواية، وهبْ لنا الثباتَ على الهداية، واجعلْ آخرَ كلامنا من الدنيا كلمةَ الإخلاص، ولا تخزنا يوم العرضِ والقصاص، إنك سميعٌ مجيب، رحيمٌ قريب.

(1) وصوّت.

قال الراوي: ثم انفضَّ ذلك المجلسُ الخاشع، وصفرَ[1] من الناسِ المسجدُ الجامع، وهم يلهجون لمحدِّثِهم بالدعاء، ويرددون كلماتِ الشكرِ والثناء.

فلما غابتْ الجموع، وأُمنَ من العودةِ والرجوع، دلفتُ[2] إلى ذلك النحويِّ الواعظ، بعدما وعيتُ عنه تلك المواعظ، فإذا هو شيخُنا أبو الحارثِ بلا اشتباه يُذكر، ولا طولِ زمانٍ قد بدّلَ منه وغيّر، فسلمتُ عليه فعرفني وبيّاني[3]، ومن طيبِ ترحيبِه ألبسني وكساني، فدعاني إلى منزلِه للضيافة، والجلوسِ معه لإدارةِ كؤوسِ الأُنسِ واللطافة، فاعتذرتُ له بكثرةِ الانشغال، وودعتُه في الحال، وقد ملأتُ مسمعي من حديثِه الجامع، وأوعبتُ في قلبي وعظَه النافع.

---

(1) وخلا.

(2) مشيت.

(3) **قال لي:** بياك. أي: أنزلك الله منزلاً حسنا.



المقامةُ الشِّتائية

حدَّثَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قالَ: هجمَ علينا فصلُ الشِّتاء وكَشَّرَ عَنْ نَابِهِ، ورشقَنا[1] بسهامِ اللأواءِ[2] وثقلِ أوصابِهِ[3]، وحاصرتْنا كتائبُه الصرصرية[4]، وأصابتْنا طعناتُ رياحه السمهريّة[5]، فأمسينا ذابلين تحتَ سطوةِ أسرِه، ذاوينَ في سلطانِ قهرِه، فتدرّعنا من ضرباتِ طلائعِهِ الفاتكة، ومن حملاتِ جيشِهِ الباتكة[6]، فلم يُغْننا ذلك التدرعُ من الإصابةِ في عُقرِ ظواهرِنا، ولم يمنعَ جندَ القُرِّ[7] من الإقامةِ في معسكرِنا.

وفي ليلةٍ تعزفُ فيها الرياحُ من الانتعاش[8]، وتنزوي[9] فيها الأعضاءُ من

(1) ورمانا.

(2) الشدة.

(3) أوجاعه وأمراضه.

(4) الشديدة البرد، والمراد: رياحه.

(5) **السمهري**: الرمْح الصَّلِيب الْعود، **يُقَال**: هُوَ مَنْسُوب إِلَى سمهر رجل كَانَ يقوِّم الرماح، وَامْرَأَته ردينة الَّتِي ينْسب إِلَيْهَا الرماح.

(6) القاطعة.

(7) البرد.

(8) النشاط.

(9) وتجتمع.

شدةِ الارتعاش؛ أطلّيتُ من شُرفةِ بيتي على الشارعِ العام؛ لأرى مَنْ عليه مِنَ الأنام، فلم أرْ إلا صريرَ[1] الصمتِ الذي تدّثرَ بالشتاءِ القارس، وتوشّحَ بالسكونِ البائس.

غيرَ أني أبصرتُ في نهايةِ الطريقِ الحزينِ سواداً[2] قد ركبَ الشتاءُ على كاهلِه، وأنزلَه على متنِه بدلَ منازلِه، فبدا ثقيلَ الخطواتِ، مرتجفَ الحركات، ينازعُ هبوبَ الريحِ نفسَه التي ترومُ[3] أن تسلبَها عليه، وتحولَ بينه وبين المقصدِ الذي يتجهُ إليه، ولا يجدُ مؤنسًا في سبيلِه إلا هدوءَ الأرجاء، وأصواتَ الرياحِ في الأنحاء.

فلمعتْ فيَّ بارقةُ مُشفِق، لأنجِدَه من هذا المسيرِ المرهِق، في هذا البؤسِ المطبق.

فانتظرتُه حتى دنا، لأبلغَه المُنى، في هذا العنا، فلما اقتربَ ناديتُه: هلمَّ أيها السائرُ إلينا، وانزلْ للضيافةِ علينا.

فسارعَ إلى الإجابةِ بلا مهَل، ونحوتُ نحوَ البابِ على عجل، ففتحتُ للرجلِ الغريب، واستقبلتُه بالودِّ والترحيب، فألقى سلامَه، وكشفَ لثامَه، فإذا هو شيخُنا أبو الحارثِ ذو المقامات، وصاحبُ الفضائلِ والكرامات.

---

(1) شدة.

(2) شخصا.

(3) تطلب.

فقلتُ: يا سعادةً هبطتْ على غيرِ موعِد، وكرامةً نبعتْ من أعذبِ مورِد، فما أشدَّ فرحي الليلةَ برؤياك، وأعظمَ شوقي لنداكَ [1]وريّاك!

فبادلني مشاعرَ الحنينِ والسعادة، وأسمعني عباراتِ الشكرِ والإشادة.

فرُغتُ[2] إلى أهلي بلا تأخير، وأحضرتُ قِرى ضيفي بلا تقتير[3]، وقرّبتُ إليه من الأشربةِ الساخنةِ ما يطردُ بطشَ القُرِّ والآلام، وعزّزتُها بالأطعمةِ التي تبعثُ الدفءَ في الأجسام.

فلما طعِمَ[4] ضيفي الكريم، ورحلَ عنه البردُ المقيم، وتصبّبَ عرقُه في هذه الليلةِ الشاتية، وتخفّفَ من بعضِ ملابسِه الشتويةِ الواقية؛ أعلن بالدعاءِ الوفير، والمدح الغزير.

فقلتُ: هنيئًا مريئًا: أيها الشيخُ الجليل، فهذا في حقِّك فضلٌ قليل.

فلما استوينا على الأرائك جالسين، وطفِقنا تلك الساعةَ متحدثين؛ قلتُ: من أيِّ فجٍّ[5] أتيت، وما حملكَ على أنْ مشيتَ، أما كان هناك مركبٌ يُقلُّك[6] إلى دارِك، ويوصلُك إلى موضعِ قرارِك؟

(1) لسخائك.

(2) فذهبت بسرعة.

(3) بلا بخل.

(4) أكل الطعام.

(5) الناحية البعيدة.

(6) يحملك.

فقال: لقد قصدتُ قرى قريبةً من دارِك العامرة، لكي أُلقيَ على أهلِها محاضرة.

فقلتُ: أيُّ قومٍ هؤلاءِ القوم، الذين استبدَ بهم[1] هذا اللوم، أيدَعُونك تسري من بينهم بلا قِرى، وتركبُ رجليك دون سيارةٍ من تلك القُرى، وهذا الليلُ يمدُّ حولَك دُجاه[2]، وذاك الشتاءُ الباردُ يبعثُ فيه سراياه؟

فقال: لو كنتُ أطلبُ بعملي رضاهم، لكنتُ عتبتُ على حبسِ قِراهم، وللُمتُهم على لبسِهم خرِقَ البخلاء، في هذه الليلةِ الليلاء[3]، المكسوةِ بقساوةِ الشتاء، ولكني أطلبُ من اللهِ الجزاء، ولا أريدُ من الخلقِ المكافأةَ والثناء.

فتعجبتُ من هذه المجاهدة، وقرّتْ عيني بهذه القدوةِ المشاهَدة.

فقلتُ: فما كان موضوعُ حديثِك إليهم، وخلاصةُ موعظتِك التي ألقيتَها عليهم؟

قال: لقد تحدثتُ إليهم عن الشتاءِ وما فيه من العظات، وما ينبغي فيه من الأعمالِ الصالحات.

فقلتُ: لو أفدتني الساعةَ بخلاصةِ ما تحدثت، وصفوةِ ما وعظتَ وتكلّمت.

(1) غلبهم.

(2) ظلامه.

(3) شديدة الظلام.

فقال: لقد كانت فحوى الكلام، في ذلك المقام، أنْ قلتُ:

أيها الناسُ، هذا الشتاءُ قد حلّ بساحتكم، وساحتْ[1] آثارُه في جميعِ مساحتِكم، ونزلَ بكم وهو يحملُ البردَ اللاذع[2]، والألمَ المتنوعَ الواسع، وتعلنُ فيه الأمراضُ على الأبدانِ ثورتَها، وتحملُ على تخوم[3] السلامةِ فورتَها، وتقلُّ الحركةُ خوفًا من عسسِ القرِّ المنتشرة، وتمسي الحياةُ بسكونِها متدثرة.

غيرَ أن للشتاءِ منافعَ لا تُحد، ومصالحَ لا تُعد، مَن تأملَ فيها حمدَ حكمةَ الخالقِ على هذا القضاء، في تقسيمِ السنةِ إلى خريفٍ وشتاء، وصيفٍ يزهو بالثمرات، وربيعٍ يميسُ[4] بالمناظرِ الزاهيات، فلكلِّ فصلٍ فوائدُ للإنسانيةِ كثيرة، وعوائدُ على الحياةِ الدنيويةِ وفيرة. **ثم أنشدتُ قائلا:**

يا شاتميْ زمنِ الشتاءِ تمهّلوا | وزِنوا الأمورَ بحكمةٍ وتأمّلوا
كم في الشتاءِ لدى البصائرِ والنُّهى | من نعمةٍ عنها العمايةُ[5] تغفلُ
تكسو السعادةُ كلَّ قلبٍ صالحٍ | إنْ حدّثوا أنّ الشتاءَ سينزِلُ
فبِه المسارِعُ للفضائلِ يرتقي | وبه يطيبُ على الصلاحِ ويُصقَلُ

---

(1) وجرت.

(2) المحرق ببرده.

(3) معالم.

(4) يتبختر.

(5) **النهى**: جمع نهية **وهي**: العقل. **والعماية**: العمى وعدم الاهتداء.

هــو للعبـــادةِ روضـــةٌ مخــضلّةٌ ... والخيـرُ في تلـك المرابـعِ يهطِـلُ[1]
فعلـى النهـارِ تهـونُ رحلـةُ صـائمٍ ... فيتــوقُ للــصومِ الكثيــرِ ويُقبِــلُ
الحَـــرُّ نـــاءٍ والعنـــاءُ مـــودَّعٌ ... والشمسُ تُسرِعُ للغروبِ وتأفلُ[2]
وهنـاك يُـدعى الـصالحون وعنـدَها ... يحلـو الـصيامُ لـدى التقـيِّ ويَسهلُ
والليـــلُ ممتـــدُ الزمـــانِ ومتنُـــه ... للقـــائمين مـــن العبـــادِ مـــذلَّلُ
مــا أحــسنَ الليــلَ الطويــلَ لعابــدٍ ... يقـضيه بالعمـلِ الجليـلِ ويَـشغلُ
فــإذا دنــاْ نــورُ الــصباحِ تهلّلــتْ ... فيـه الـسعادةُ والمحيـا[3] الأجمـلُ

ثم إني قلتُ لهم: معشر المسلمين، المتمسكين بهذا الدين، اعلموا أن قسوةَ الشتاءِ تعلِّمُنا التفاؤلَ بالمكروهات، والصبرَ على البليات، فكم فيه للصابرين من حسناتٍ، وتكفيرٍ للخطيئات، وصحة للأجسام، بورودِ بعضِ الأسقام، وحصولِ الآلام، فطولُ العافيةِ قد يلدُ الأشر، ويربّي النفسَ على البطر.

ويعلِّمُنا بردُ الشتاءِ وآلامُه، وأوجاعُه وأسقامُه، الرحمةَ بالفقراءِ المعوزين، ويدعونا لمدِّ يدِ العونِ إلى المساكينِ والمحتاجين، فأنتَ-أيها الغنيُّ-في دفءِ الغنى تقدرُ على أسبابِ الوقاية، وتمتلكُ وسائلَ الدفعِ والحماية؛ فلديك من الكساءِ المختار، ما يصدُّ عنك عادياتِ الأضرار، ولك من الفراشِ الوثير[4]، ما

---

(1) **مخضلة:** مبتلة. **يهطل:** ينزل بتتابع.

(2) **ناء:** بعيد. **وتأفل:** تغيب.

(3) والوجه.

(4) الناعم.

ينحّي عنك البردَ الكثير، ولك مسكنٌ تسكنُ فيه الحرارةُ أيامَ القُر، ويُستدفعُ به نزولُ الضُّر، وتقدرُ على شراءِ ما يجلبُ لك حرارةَ الأجسام، من أجهزةِ التدفئةِ وأصنافِ الشرابِ والطعام.

أما الفقيرُ فهو متدثرٌ بفقرِه، ومكتسٍ بشعارِ عسرِه، فثوبُه للصيفِ ثوبُه للشتاء، والطعامُ إن وجدَه في الغداء، قد لا يجدُه في العشاء.

أما مسكنُه فريحُ الشتاءِ، تتجولُ فيه كما تشاء، فكم يمتدُّ حبلُ عنائِه وضرِّه، تحتَ سقفِ عوزِه وفقرِه.

أما النازحون الذين نزحتْ بهم الحروبُ عن ديارِهم، وشطّتْ بهم[1] عن بقاءِ راحتِهم ونيلِ أوطارِهم[2]، فسلِ الخيامَ البالية، كم تُظِلُّ من أجسامٍ ذاوية، وكم تخفي تحتها من أوجاعٍ قائمة، وأحوالٍ شديدةٍ قاتمة، وخاطبِ الصقيعَ يخبرْك كما أسالَ هنالك من دموع، وكم أطار عن العيونِ السكونَ والهجوع، وحدِّثِ الجوعَ كم زادِ من سطوةِ الآلام، واستحدثَ من الأوجاعِ والأسقام؟

فهل تذكّرَ الواجدون، ما يُعانيه هؤلاء المعوزون، في هذا البردِ الذي يرسلُ عليهم صريرَه، ويُلقي على ضعفِهم زمهريرَه[3]؟

أيها المسلمون الأحباب، لا تنسوا أن في الشتاءِ ذكرى لأولي الألباب،

---

(1) وبعدت بهم.

(2) حاجاتهم.

(3) شدة برده.

فأرسلوا تدبرَكم في تاريخِ البشر، وما حصلَ لهم فيه من العظاتِ والعِبر؛ فبالريح هلكتْ عاد التي تكبرت، وارتدّتْ بغيظها الأحزابُ التي تحزّبت، فغدتْ الريحُ بذلك جنديًا من جنودِ ربِّ العالمين، يهلك اللهُ بها بعضَ الفجرةِ والكافرين.

ألا وإنّ في بردِ الشتاءِ الكبير، ذكرى ببردِ نارِ السعير، ففي النارِ بردُ عذاب، فاتعظوا يا أولي الألباب.

ثم إني ختمتُ موعظتي إياهم، وزيارتي لقُراهم، بتعليمِهم الأحكامَ الفقهية، والآدابَ الإسلامية، التي يحتاجون إليها في الشتاء، كما تحدثتْ عنها شريعتُنا الغرّاء.

ثم ودّعتُهم متجهًا إلى رحلي، وسائلاً اللهَ غفرانَ خطأي وجهلي.

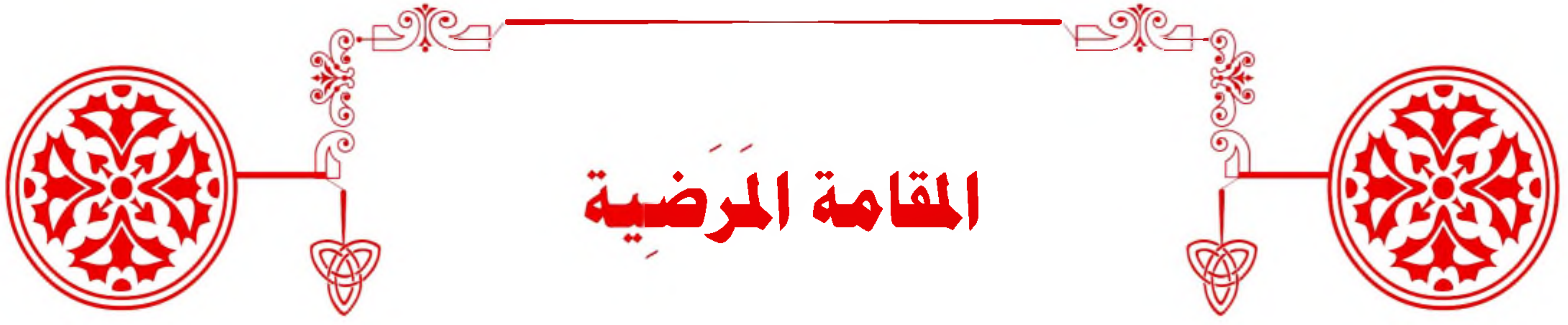
فقلتُ: جزاكَ اللهُ خيراً من ناصحٍ راشد، وعالمٍ مخلصٍ عابد، فقد أحسنتْ وعظَهم عن نزيلِ هذه الأيام، وأكرمتَهم بهذا البيانِ غايةَ الإكرام.

ثم إنه طلب مني الانصرافَ إلى رحلِه، والقفولَ[1] إلى ولدِه وأهلِه.

فقلتُ: لن تعودَ إليه إلا على متنِ سيارتي؛ إكرامًا لك على إفادتي وزيارتي.

فقبِلَ عرضي بالشكرِ الجزيل، ولم ينسني من الدعاءِ الخالصِ الطويل.

(1) والرجوع.



المقامة المَرَضِية

حدّثَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قالَ: نزلَ بنا فصلُ الشتاء هذا العام، فحلّت بنا ألوانٌ من الأسقامِ والآلام، فضجَّ[1] الناسُ بالأنين من الشكوى، وتضجروا من تطاول هذه البلوى، وغدوا يبحثون عن العافية في كل سبيل، ويناشدون فصلَ القُرِّ[2] بسرعةِ التوديعِ والرحيل؛ فقدْ أوجعَهم مقامُه، وأنهكتْهم[3] آلامُه، واشتاقوا إلى فصل الربيعِ اشتياقَ الأرضِ الجدباء، إلى انصبابِ دموعِ السماء، وكم يُصلحُ غَيْثٌ مَا أَفْسَدَ البَرْد[4]، ويمحو مآسيَ اليوم تباشيرُ الغد.

وقد كنتُ مما لفّتني القِرَّة[5] بجلبابِها، وأسقتني من مُرِّ ضرِّها وأوصابِها[6]، فصابرتُها مصابرةَ الأبطال، وقارعتُها مقارعةَ الأمثالِ للأمثال، حتى نفدتْ[7]

(1) فصاح.

(2) البرد.

(3) وأجهدتهم.

(4) هذا مثل. ويضرب لمن أصلح ما أفسده غيره. مجمع الأمثال (1/ 402).

(5) **القرة**: الْبرد، وَمَا يُصِيب الإِنْسَان وَغَيره من الْبرد.

(6) وأوجاعها.

(7) انتهت.

عُـدّتي، ووهنـت[1] قـوتي، وصـفرتْ[2] جَعبتـي[3] مـن سـهامها، وضـجّت نفسي بآلامِها، فخرجت إلى مشفى أبحثُ عن دواء لعِلّتي، وسبيلٍ إلى بقـاءِ مُهجتـي[4] قبلَ أن يُجهز عليها السقم، ويدفِّف عليها الألـم[5].

فحملتني خُطاي المثخنة، وقادتني قواي الموهنة[6] إلى مصحّة لعلي أجد فيها بردَ الدواء، لأُطفئَ به حرَّ هذا الداء، فوصلتُ فتلقيتُ مـن العـلاجِ مـا يُرجـى بـه الـشفاء، ويَـذهبُ بـأثرِه العنـاء، فوافـقَ انتهـائي مـن الاسـتطبابِ سـاعةَ خطبـةِ الجمعة، فتركتُ الإيابَ والرجعة، وآثرتُ النهوضَ بالاستعداد، واللحاقَ بركب العُبّاد، فدخلتُ مسجدَ المشفى الجامع، فألفيتُ الحاضرين قـد أسـلموا لخطيبِـه القلـوبَ والمـسامع، فطفـقَ يـضمِّخُها بعـرْف العِـبر والعظـات، ويـشنّفها بجميـل قراءتِه الآياتِ والأبيات، فأدركتُ مما قال:

أيها الناس: اعلمـوا أن الـدنيا دارٌ محفوفـةٌ بالمكروهـات، موصـوفةٌ بـالآلام والمنغِّصات، لا يسلمُ عامرُها من بليّةٍ تُـصيبه، ولا مـن لأواءَ[7] تَنوبُـه[8]، ألا وإنَّ

---

(1) وضعفت.

(2) وخلت.

(3) وعاء سهامي.

(4) روحي.

(5) ويجهز عليها.

(6) الضعيفة.

(7) شدة.

(8) تصيبه.

من بلاياها العِظام، ومكارهِها الجِسام: الأمراضَ التي تصولُ على الأجسام، فتوسعُها بالأوجاعِ والآلام، فبينا المرءُ في كنفِ العافيةِ سعيد، وفي رياضِ الحياةِ في عيشٍ رغيد، إذ بالمرضِ يُطفئُ جمرةَ فرحِه، ويقيِّدُ مرسَلَ مرحِه، ويُذبِلُ زهرةَ بهجتِه، ويوهي[1] حبلَ متعتِه، فتتباينُ مواقفُ الناسِ إزاءَ هذا القدَرِ المحتوم، وتختلفُ أحوالُهم الدينيةُ في لقاءِ هذا القضاءِ المعلوم؛ فبينَ راضٍ لا يشكو مكروهَ القَدَر، وسائرٍ في مضمارِ الصبرِ على الضرر، وكارهٍ متمعّر[2]، وشاتمٍ متضجر، يندبُ[3] الموتَ في النهارِ والليل، ويدعو على نفسِه بالثبورِ[4] والويل، فشتانَ ما بين الراضي الصابر، والمتسخطِ البائر[5]، فللراضين تُسرعُ العافيةُ ويحصلُ الثواب، وللساخطين يتضاعفُ الألمُ ويُستحَقُّ العقاب.

ثم التفتَ الخطيبُ يمنةً والجمعُ قد اشرأبَّ إليه بالأعناق[6] مُصغيا، فغدا ببديعِ نصحِه يقولُ مُمليا:

أيُّها المريضُ: المتلظي في دائِه، الراغبُ في قربِ شفائِه، الذي سخطَ قدرَ مولاه، وضجرَ من تقديرِ بلواه: إلامَ تستمرُّ في غيِّك، وتستصغرُ كِبرَ بغيك، وحتامَ لا تقدِّرُ ربَّك حقَّ قدرِه، وتُصلحُ شأنَك في نهيِه وأمرِه، تبارزُ ربَّك

---

(1) ويضعف.

(2) متغير الملامح.

(3) يدعو.

(4) بالهلاك.

(5) الهالك.

(6) أمد الجمع الأعناق إليه.

بالخطايا، وتعدو بالسخطِ على قضائِه في البلايا، وأنتَ ترجو أنْ يعافيَك من دائِك، ويخرجَك من أتونِ[1] ضرّائِك، أتظنُ أنّ ما عنده يُنالُ بمعصيتِه، ويُرتجى فضلُه بدوامِ مخالفتِه! هيهاتَ[2] أن تبلغَ غايتَك المنشودة، وأنتَ تسلكُ إليها سبلاً مسدودة، أما استهديتَ بإيمانِك في بلواك، واسترشدتَ بعقلِك في شكواك، فعلمتَ أنَّ لتقديرِ المرضِ غاياتٍ جليلة، وحكمًا صالحةً نبيلة، فلو علمتَها لما ضجرتَ قدرَ اللهِ في سقمِك، ولا سخطتَ حالَك في ألمِك.

هلّا علمتَ أنّ السقمَ سوطُ اللهِ يسوقُ به الشاردين عنه إلى بابِه، ويردُّ اللاهين إلى حمى جنابِه، ويعرِّفُهم بشدةِ حاجتِهم إليه، وعظمةِ فقرِهم إلى الاعتمادِ عليه، فهُم ضعفاءُ محتاجون إلى قوتِه، عاجزون مفتقرون إلى قدرتِه.

أما والله إنّ قدرَ المرضِ يزهِّدُ في الدنيا التي غرقَ الخلقُ في شهواتِها، ويرغِّبُهم في الآخرةِ التي شُغلوا عن نعيمِها ولذاتِها.

أما تأملتَ -أيها المريضُ- وأنتَ تتجرّعُ مرارةَ السقم، وتَشرق[3] بغُصصِ الألم، أنّ المرضَ يعلِّمُك رحمةَ المرضى والمصابين، ويدعوك إلى الإحسانِ إلى الموجوعين، ويأخذُك إلى بابِ المليكِ لتدعوَه، ويحملُك لتبتهلَ إليه وترجوَه.

---

(1) موقد.

(2) بَعُدَ.

(3) شرق بالماء: وقف فِي حلقه فَلم يكد يسيغه.

ثم أنشد:

صَبْراً على ألمِ السقامِ وضُرِّهِ ... ورضًا بمكروهِ البلاءِ ومُرِّهِ
وسكينةً تكسو القلوبَ إذا دنا ... قدَرٌ يَصولُ على النفوسِ بحرِّهِ
فاللهُ يختارُ الجميلَ لعبدِهِ ... ما دامَ ممتثلاً شرائعَ أمرِهِ
فيقدِّرُ السقمَ الأليمَ لكي يرى ... فزعَ الأنامِ إلى مرابعِ شكرِهِ
ويُثيبُ مَن صبروا فيلقى صابرٌ ... يومَ المعادِ لديه وافيَ أجرِهِ

وقبلَ أن يهبطَ من مِنبرِ جمعتِه، ويختمَ خطبتَه بخالصِ دعوتِه؛ قال في وصيةٍ جامعة، ومقالةٍ نافعة:

أيها المعافى: لا تغترّ برونقِ[1] صحتِك، ولا يُلهينّك طولُ سلامتِك؛ فالأمراضُ سهامٌ مطلَقةٌ في أيِّ وقتٍ قد تستهدفُك، والبلايا رماحُها مشرعةٌ[2] قد تَرمحُك[3]، فوطِّنْ نفسَك على الرضا بالقدر، والصبرِ على نزول الغِيَر[4]، واشكرِ الله على نعمةِ العافية؛ فإنها منّةٌ عظيمةٌ ضافيةٌ[5]، فما أحسنَ الشكرَ للمنعِمِ الكريم، والتسليمَ للمقدِّرِ الحكيم!

ويا أيُّها السقيمُ: إنّ المرضَ سيُشفى، والألمَ سيُنسى، وليلَ العناءِ الجاثم،

(1) بحسن.
(2) مسدّدة.
(3) تطعنك.
(4) حوادث الزمان.
(5) سابغة.

سيكشفُه شروقُ فجرٍ قادم، فكن في مرضِك صابرا، ولربِّك شاكرا؛ فما أجملَ الصبرَ في البلاء، والتفاؤلَ بقربِ شفاءِ الداء!

ثم ختمَ خطبتَه لهذا الجمعِ الخاشع، بالدعاءِ الجامع، وقال: قوموا إلى صلاتِكم، يرحمْكم مولاكم.

فلما فرغنا من صلاتِنا، وأدّينا أذكارِنا ودعواتِنا، تقاطرَ[1] الناسُ لمصافحةِ خطيبِنا الذي عطّر الأسماعَ بجواهرِ لفظِه، وأسرَ القلوبَ بمحاسنِ وعظِه، فجئتُه فعرفني وعرفتُه، فحيّاني وحييتُه، فإذا هو شيخنا أبو الحارث ذو المعالي،الذي لم تُخلِق[2] بُردةَ أدبه الأيامُ والليالي، فقلتُ: الحمدُ للهِ الذي جعلني الساعةَ من سامعيك، وأكرمني بأنْ كنتُ من موعوظيك؛ فقد استشفيتُ اليوم بدوائين، وآسيتُ[3] نفسي بعلاجين: دواءِ العقاقيرِ الطبية، ودواءِ الموعظةِ الإيمانية، فبهما تُرجى سلامةُ الأبدان، وصحةُ الأرواحِ والأذهان.

ثم فارقتُه وروحي متضمخةٌ[4] بأريجِ[5] دوائه، ولساني يلهجُ[6] بشكرِ جزيلِ عطائِه.

---

(1) جاءوا متتابعين.

(2) لم تبلَ.

(3) عالجت.

(4) متلطخة.

(5) بعطر.

(6) يستمر.



قالَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: تواعدتُ وثلةً من الأصدقاء، على لقاءٍ يجمعُنا ذاتَ مساء، فوافينا[1] المكانَ على الموعدِ المضروب، فهبَّ علينا نسيمُ السعادةِ خيرَ هبوب، وأشرقتْ منّا ابتساماتُ السرور، وسعدتْ مسامعُنا بكلماتِ الحبور، وأتينا وقد حملَ كلٌّ منّا كيسَ قاتِه، ومُسعدَ بالِه وأوقاتِه، ومعه رفقاؤه من الماءِ والدخان، والأشربةِ الغازية المتعددةِ الطعومِ والألوان.

فصرنا على متكآتِنا متقابلين، وبما في أيدينا جذِلين[2]، وكأننا–لفرطِ فرحِنا–النجومُ على المجرّة، أو الملوكُ على الأسرّة، نشمُّ عبيرَ الراحةِ ينبعثُ من بينِ أكياسِنا، فيطويْ همومَ نفوسِنا، ويُنسينا نصبَ[3] يومِنا وأمسِنا.

فصافحنا أغصانَ القاتِ بعدَ طولِ انتظار، مصافحةَ الحبيبِ الحبيبَ الذي غيّبتهُ الأسفار، وشطّ[4] زمانًا عن الدار.

وسافرْنا بعدَ جنحٍ من الليلِ عبرَ متونِ أعوادِ القاتِ، إلى متاهاتٍ ممتدةِ

---

(1) أتينا.

(2) فرحين.

(3) تعب.

(4) وبعد.

الجهات، وبِتنا من شدةِ الارتياحِ نحسبُ أنفسَنا رؤساءَ تزدحمُ بين أيدينا أعلامُ الإسعاد، وترفرفُ أمامَ أعينِنا ألويةُ الطاعةِ والانقياد، ونملكُ الأموالَ والقصور، ونحقّقُ أمانيَنَا في كلِّ الأمور.

كأنّنا ومُطيُّ القاتِ تحملُنا على السحابةِ من سعْدٍ إلى سعْدِ
نطيرُ عبْرَ ذُرى الأغصانِ في ولهٍ ونشوةٍ[1] لا تباليْ الدهرَ بالبُعْدِ
ويسهلُ الصعْبُ والغاياتُ نبلغُها بدونِ بذلٍ ولا سعيٍ ولا كدِّ[2]

وبينا نحنُ على تلك الحالِ من صفاءِ الأحلام، إذ بطارقٍ يطرقُ البابَ بلا سابقِ إعلام، فسلّمَ تسليمَ الفذِّ الوقور، وحيّا تحيةَ ذيْ الشرفِ الموفور، وقال: لعلي كدّرتُ صفوَ كلامِكم، وقطعتُ عنكم حبلَ أحلامِكم، فقلنا: لا عليكَ أبا الحارثِ؛ فأنتَ قمرُ السارين، وسنا المتسامرين[3].

قال الراوي: فلما رأيناه غيرَ مصطحبٍ زنبيلَ قاتٍ في يديه، تبادرنا بإهداءِ قاتٍ إليه، وقلنا: خَزِّنْ، فما أسعدَنا هذه الليلةَ بحضورِك، وما أضوأَ دُجانا بإشراقةِ نورِك.

فما لبثَ أنْ ردّ عطيّتَنا علينا، وحملقَ[4] ببصرِه الغضوبِ إلينا، فقال: إني لا أمضغُ مما تمضغون، ولا أعشقُ هذه التي تعشقون.

(1) **الوله**: ذهاب العقل. **والنشوة**: النشاط.

(2) ولا كلفة.

(3) الجالسين المتحدثين ليلا.

(4) فتح عَيْنَيْهِ وَنظر نظرًا شَدِيدا.

فتملّكنا العجبُ العُجاب، ورمينا إليه عيونَ الاستغراب، وقلنا: لمَ لا تتناولُ القات، وهو من الأشجارِ الطيبات، التي تشهدُ ببركتِها المجالس، ويُسرُّ بها العاملُ والجالس، والمرتحلُ والمقيمُ، والصحيحُ والسليم، والمجنونُ والعاقل، وهو زينةُ المحافل، وسلوةُ الساري[1] والنازل.

فقال: أما إنكم قد تفضّلتم بفتحِ البابِ للداخل، وأذنتم بما ذكرتم بالقولِ للقائل، فإني أقول: وأيُّ طيبٍ وبركةٍ في هذه الشجرةِ التي تجلبُ الهمومَ ولا تطردُها، وتُشقي نفوسَ المتعاطين–في الحقيقة–ولا تُسعدُها؟

أرأيتم كيف يقلقُ المتعاطي قبلَ تحصيلِ القات، ويقضي في البحثِ عنه واختيارِه بعضَ الأوقات، فإذا ظفرَ بما يريد، بقيَ وقتًا يسيراً وهو سعيد، ولكن ماذا بعد رمي القاتِ من الفم، حين يهجمُ على راميه الغمُّ والهم، وتتساقطُ عليه كواكبُ الأحزانِ من كلِّ أفق، وتنسدُ أمام عينيه للخروجِ من سوءِ حالِه كلُّ الطرق، فيبيتُ على فراشِه أرِقا[2]، وفوقَ جمرِ أحزانِه قلِقا، وكيف يكونُ سعيداً بالتخزين، من ينتفُ شعرَ الشاربِ والجبين، إذا فرغَ من ساعاتِ تخزينِه، وغدا سابحًا في متاهاتِ آهاتِه وأنينِه، فمن رآه، وحدّق في مرآه، تعجّبَ من هذه الحال، إذا لم يكنْ يعرفُ عن المخزنين هذه الأحوال، وهناك أشياءُ أكثرُ من هذا وأوسع، وأشدُّ مما ذكرتُ وأفظع، ولو فكرَ المخزنُ في هذه المآلات، لكرِه من

---

(1) الماشي ليلا.

(2) ساهرا.

نفسِه هذه النهايات.

فقلنا: إن القاتَ يمنحُنا النشاطَ والقوّة، ويهبُنا ساعةَ التخزينِ الجِدَّ والفُتوّة، وقد نستعينُ به على إنجازِ الأعمال، وإصلاحِ بعضِ المشكلاتِ والأحوال.

فقال: لئن قلتم فلقد صَدقتم وصُدِّقتم، ولكن ما يعطيكم سرعانَ ما يسلبُكم، وما يمنحُكم عن قريبٍ يستمنحُكم، ففورةُ النشاطِ مأخوذةٌ منكم، فإذا ألقيتم ما في أفواهكم سطا الفتورُ عليكم، وكيف تفوّقَ غيرُكم في العالمِ في أعمالِهم وهم لا يخزِّنون، وبلغ بعضُهم من الآمالِ ما لا تبلغون؟.

وإذا كان بعضُكم يستعينُ بالقاتِ على قضاءِ عملٍ نافع، فكثيرٌ من المخزنين يبقون الساعاتِ الطوالَ في وقتٍ ضائع، فكم ساعاتٍ يومية تضيعُ على المسلمين المخزِّنين، ألم يكن من الخيرِ لهم أن يعمروها في خيرٍ للدنيا أو الدين؟.

ثم اعلموا-حماكم الله ووقاكم-، وبلّغكم من الخيرِ مُناكم: أنه كم مرضٍ تحملُه شجرةُ القات، خصوصًا إذا أمطروها بالسموم والمبيدات، وكم أَودعت تلك الشجرةُ في الأجسامِ من الآفات، بل غدت لبعضِ النفوسِ من المهلِكات، فسلوا الأطباءَ كم داءٍ سبّبتْ، وكم حسنٍ شانتْ[1] وعيّبتْ، وكم أليمٍ لو هجرَ القاتَ لارتفعَ ألمُه، ومهمومٍ لولا القاتُ لما كان همُّه وسقمُه.

أفيسعى اللبيبُ بخُطاه إلى هلاكِه، ويأبى السعيَ إلى فكاكِه، وقد اتضحَ له

---

(1) عابت.

طريقُ النجاةِ من الداء، وعُرِضَ عليه -مجانًا- الدواءُ الذي يمنحُه الشفاء؟.

فقلنا: إن الاجتماعَ على التخزين، يجعلُنا نتذاكرُ شؤونَ الدِّين، ونعتني بأحوالِ المسلمين، ونذكرُ أثناءَه ربَّ العالمين، ولولا القاتُ لما اجتمعنا، ولا ذكرنا ولا تذاكرنا.

فقال: إن كان هذا واقعًا فخيرٌ قليل، إذا قورنَ بالشرِّ الكثيرِ الوبيل[1]، الذي يلدُه تعاطي القات، حالَ الانفرادِ أو الاجتماعات، فأنشدكم اللهَ: أليس تعاطي القاتُ يدعُ بعضَ الناسِ يتركون الصلاةَ أو يؤخرونها، وينأون عن المساجدِ ويهجرونها؟ فعند بعض المخزنين حبُّ القات، غلبَ حُبَّ الصلاة، ولذةُ البقاءِ على المتكآت والوسائد، أرجحُ من لذةِ الذهابِ إلى المساجد، حتى من بعضِ الصالحين، الذين أضحوا من المدمنين.

وكم من موظفٍ لأجلِ القاتِ أكلَ المالَ الحرام، وقصّر في حقِّ الوظيفةِ والدوام، وهضمَ حقَّ إنسانٍ برشوةٍ تعاطاها، أو هديةٍ من القاتٍ إليه أهداها، وكم من قومٍ اجتمعوا في مجلسِ القات، وتفكّهوا في أعراضِ الأحياءِ والأموات، وأطلقوا ألسنةَ السخريةِ والاستهزاء، ومدّوا حبالَ الكذبِ والافتراء، ولولا القاتُ لسلموا من الآثام، ونزهوا أنفسَهم عن المالِ الحرام.

وكم من إنسانٍ أراقَ ماءَ وجهِ المصون، وسكبَ دمعَ عينيه الهتون[2]، من

---

(1) الشديد.

(2) السائل المتتابع.

أجلِ قبضةِ قاتٍ يمضغُها سويعات، فأهانَ نفسَه لشهوةٍ عاجلِة، وباعَ عزّةَ نفسِه بلذةٍ آنيةٍ زائلة.

فقلنا: أما هذه فصدقتَ القولَ كلَّه، وذكرتَ أعظمَ ما في القاتِ من عِلّة، ولكن أليس في القاتِ مصالحُ اقتصادية، وعوائدُ كثيرةٌ مالية؟

فقال: إن كان في القاتِ مصالح، فلا تُداني ما فيه من المساوئِ والقبائح؛ وإذا نظرتم نظرةً ماليةً من جانب، أفليس من العدلِ أن تنظروا إلى سائرِ الجوانب، ألم يكن القاتُ منهبةً للمال، وسببًا لتجويعِ الزوجةِ والعيال؟

وكم من أموالٍ كلَّ يومٍ تبذلُ في شرائِه، وتذهبُ ضائعةً في مخروقِ وعائِه!

وكم إنسانٍ ينفقُ في شراءِ القات، أضعافَ أضعاف ما ينفقُ في شراءِ الغذاءِ وسائرِ الحاجات! فما أكرمَ المخزِّنَين وأسخاهم في ميدانِ القات، وما أبخلَهم وأشدَّ إمساكَهم في الحقوقِ الماليةِ للأولادِ والزوجات!

وما ذكرتُه هو الكثيرُ الغالب، ولا عبرةَ بالقليلِ المخالفِ في هذا الجانب.

بل تأملوا معتبرين، وانظروا متدبرين: كم قضت شجرةُ القاتِ على أرضٍ زراعية، وأعدمتْ أصنافًا نافعةً غذائية، فغدا الغذاءُ مستوردا، وغرسُ هذه الشجرةِ لا يزالُ متجدِّدا.

ثم أنشد:

يـا عاشـقَ القـاتِ مفتونـًا بـه كَلِفًـا ... يهوى الوصالَ وطيفُ الهجرِ يُشجيهِ[1]
ومغرمًـا بـين أغـصانٍ تـضاحكُهُ ... تهفـو إليـه وحُـبَّ الوصـلِ تُوليـهِ[2]
وراكبًـا نحوَهـا بالحـبِّ في جـذلٍ ... يـشكو الأوامَ[3] ونيـلُ الوصـلِ يُطفيـهِ
وبـاذلاً في سـبيلِ العـشقِ راحتَـه ... ومالَـه في سـخاءٍ منـه يُبديـهِ
ومُـدمنًا مـضغَ أغـصانٍ تؤرِّقُـه ... وربمـا بعـد ذاك المـضغِ تُبكيـهِ
أُبْ للحجا[4] وأفِقْ فالحبُّ مهلكةٌ ... بـين الغـصونِ وعقـلُ المـرءِ يُنجيـهِ
فالقـاتُ للحـرِّ إتـلافٌ ومحزنـةٌ ... ومهمـهٌ[5] عـن بلـوغِ الـنُّجْحِ تُثنيـهِ
وعـادةٌ في عمـومِ النـاسِ سـيئةٌ ... تـودي[6] الفتـى في عنـاْ الـدنيا وتُـشقيهِ
والعاقلُ الفـردُ[7] لا يرضـى بهـا أبـداً ... لأنهـا عـن سـموِّ الـنفسِ تُدنيـهِ
فـانظرْ عواقبَهـا واعـدُدْ مـصائبَها ... واحـسبْ نوائبَهـا مـن غيـرِ مـا تِيـهِ[8]
ولـستُ ممـن يـرى تحريمَـه لفتـى ... مـا لـم يـصرْ عـن حـدودِ الله يُطغيـهِ

(1) كلفًا: عاشقاً. يهوى: يحب. يشجيه: يحزنه.
(2) تُنيله.
(3) الظمأ.
(4) للعقل.
(5) وصحراء بعيدة.
(6) تهلك.
(7) المنفرد في مكانته أو كفايته.
(8) نوائبها: مصائبها. تيه: كِبْر.

لكنّه شهوةٌ تُفضي إلى ضررٍ   وعادةٌ لم تُحبَّذْ عند أهليهِ
وهجرُه نعمةٌ لا شكَّ يعرفُها   من ذاقَه ورأى أدهى دواهيهِ
فاعصِ الهوى ووفاقَ الناسِ في خطلٍ   تنزلْ من المجدِ في أسمى معاليه

قالَ الراوي: فلما سمعنا ما قاله، ووعينا منه هذه المقالة، مرَّ القاتُ في أشداقِنا بعد حلاوتِه، ويبسَ في عيونِنا الذي في أكياسِنا بعد طراوتِه، وآبتْ إلينا النُّهى بعد الذهاب، وأشرقتْ علينا شمسُ الحقيقةِ بعد الغياب، فعزمنا على هجرِ القاتِ، في جميع الأوقات والمناسبات، حتى نسلمَ في ديننا ودنيانا، وأموالِنا وعيالِنا وقُوانا، وعاهدْنا على ما رسخَ في نفوسِنا بعد النصيحة، ومعرفةِ السبيلِ السالكةِ الصحيحة.



مقامة المُغتربِين

حكى مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: برّح بي[1] شوقٌ إلى البيتِ الحرام، وغلبني الحنينُ إلى ذلك المرام[2]، وتطاولَ بي حبلُ الوجدِ[3] من عامٍ إلى عام، وأنا أرى وفودَ الزائرينَ من حُجاجٍ ومعتمرين، يغدون ويروحون، حاملين معهمْ لظى أحزاني وأشواقي، عندَ الوداعِ ويوم التلاقي، حتى برقَ[4] في سماءِ النفسِ تحققُ مطلبِها، وهطلَ[5] في أرضِها نيلُ مأربِها، فركبتُ مطايا الحنين، وجمعتُ أشواقَ السنين، وعلى صهواتِ طريقِ التعبِ وصلتُ إلى مكةَ المكرمة، ومدينةِ الإسلامِ المعظّمة، وعلى أبوابِها اتقدَ[6] الشوقُ اتقادا، وازداد خفقانُ القلبِ ازديادا؛ إذ عمّا قريبٍ تقرُّ العينُ برؤيةِ ما كانت تهواه، وتلقى النفسُ ما كانتْ تتمناه، ويعانقُ القلبُ هنالك رجواه، ويصلُ الحبيبُ إلى ما أحبَّ لُقياه.فلما سطعتْ للطرْفِ أنوارُ الكعبةِ السَّنِيَّة[7]، وبدتْ أمامَه مخايلُ عظمتِها العليّة،

(1) اشتد علي.

(2) المطلب.

(3) الحزن.

(4) لمع.

(5) ونزل.

(6) اشتعل.

(7) المضيئة.

سالتْ دموعُ العينين على الوجنتين، وبرقتْ دلائلُ الفرحِ على الشفتين، وما كنتُ قبلَ هذا أعرفُ دمعًا غيرَ دمعِ الوجعِ والترح[1]، فرأيتُ مني اليومَ دمعَ السعدِ والفرح، فلم يمهلْني لساني وأنا بينَ أحضانِ الحَيرةِ والعَجب، وبلوغِ نفسي هذا الأرب[2]، **حتى قال:**

هنا قبلةُ الإسلامِ والمجدِ والسَّنا ... ومطلعُ نورِ الحقِّ إذْ هلَّ من هُنا[3]
ومهوى فؤادِ الصبِّ[4] من كل بلدة ... ووجهةُ أهلِ الحقِّ من سائرِ الدُنى
وموضعُ سكْبِ الدمعِ حُزنًا لتركِه ... وسعداً بمرآهُ العزيزِ على المُنى
فيا قلبُ هذا منزلُ الشوقِ قد بدا ... ويا عينُ هذا مشهدُ الغيبِ قد دنا
فأنعمْ بهذا اليومِ يومًا حييتُهُ ... وأكرِمْ بهذا البيتِ للرُّوحِ موطنا

فجاوزتُ الصفوفَ بعدَ الصفوف، وطفقتُ[5] حول الكعبة أطوف، وأنا في سعادةٍ شاملة، وخُطى فرحةٍ متواصلة، فلما فرغتُ من الطواف، مضيتُ إلى تخوم المطاف، فصليتُ خلفَ مقامِ إبراهيمَ ركعتين، وفارقتُهما وتحللتُ منهما بتسليمتين، ثم رمقتْ[6] عيناي المسعى عن قُرب، فدلفتُ[7] إلى الطوافِ بين

(1) والحزن.
(2) الحاجة.
(3) **السنا**: الرفعة. **هل**: أشرق.
(4) المشتاق.
(5) وجعلت.
(6) نظرت.
(7) فمشيت.

الصفا والمروةِ بحُب، فسعيتُ وبكيت، ودعوتُ عندَ توجهي إلى البيت، ثم أنهيتُ عمرتي، ومقصدَ رحلتي، بحلقِ شعرِ راسي، وحلَّ لي خلعُ إحرامي وارتداءُ لباسي، فسمعتُ حينئذٍ إقامةَ الصلاة، والدعوةَ إلى اجتماعِ الصفوفِ للمناجاة، فانتظمتُ في سلكِهم، ودرتُ في فُلْكِهم، فكانتْ أولَ صلاةٍ أصلِّيها في هذا البيتِ العتيق، وأشاهدُ هذا الجمعَ الأنيق(1)، الذي جاءَ أكثرُه من كلِّ فجٍّ عميق(2)، فما كان أحسنَها من صلاةٍ أُصلِّيها، وأجملَها من مناجاةٍ تلذذتُ فيها، فلما سلّمتُ من صلاتي، وقضيتُ استغفاري وتسبيحاتي، عرّفتُ إلى رجلٍ نفسي بمصافحةٍ وابتسامة، فعرفني نفسَه وعلى وجهه قتامة(3)، فعجبتُ لحزنِه ووجومِه(4)، فأحببتُ النفاذَ(5) لاستخرج مكتومه، فقلتُ له: يا فلانُ، ما لي أرى الغمَّ يطوِّق منظرَك، والكآبةَ تحتلُّ مظهرَك؟!

فقال: كيفَ لا أحزنُ ولا أكتئِب، ولا أبكي ولا أنتحِب، ولا يقيّدُني البؤسُ(6) في أغلالِه(7)، ولا يحتويني(8) الهمُّ في أضيقِ أحوالِه، وأنا مغتربٌ عن أولادي ووطني، وزوجي وسكني، وأحبابي وأصحابي، وإخوتي وجيراني، وأبي

---

(1) الحسن.

(2) طريق بعيد.

(3) غبار.

(4) سكوته على غيظ.

(5) الدخول.

(6) الحزن.

(7) قيوده.

(8) ولا يقبضني.

وأمي، وأقاربي وبني عمي، فلا أراهمْ إلا لَمَاما[1]، وكمْ أجدُ لذلك آلاما.

فكم ماتَ منهمْ من قريب، وفارقَ الدنيا من حبيب، وأنا في كفِّ النّوى[2] لا أستطيعُ تشييعَ جنائِزهم، ولا حضورَ مآتمِهم وولائمِهم، وكم تركتُ زوجي حاملا، فلا أعودُ إلا وقد صار ذلك الجنينُ طفلاً يدب[3]، بل يسعى ويخب[4]، فأسرعُ إلى احتضانِه مسرورا، فيفرُّ مني مذعورا؛ إذ لم ترني من قبل عيناه، ولم يقابلْ مرآيَ مرآه، فأتركُه زمنًا حتى يعتادَ منظري في البيت، وقد بردَ وهجُ[5] شوقي بعدما أوريت[6]، وأنا هنا أعاني مرَّ الغُربة، ولظى العُزبة، وأتنقلُ من كربةٍ إلى كربة، فماذا تنفعُني الأموالُ الوفيرة، وأنا أذوقُ المراراتِ الكثيرة، وما أُفيدُ من جمعِ الأموال، وقد فُرِّقَ بيني وبينَ الأهلِ والعيال؟! ثم رفع صوتَه منشدا، وتغنَّى بشعرِه مردّدا:

عشتُ الغمومَ وذقتُ الضُرَّ والكمدا ... لما تركتُ هُناك الأهلَ والولدا

لقد طلبتُ رخاءَ العيشِ من سفري ... ورمتُ من فرقةِ الأحبابِ أنْ أجدا[7]

وأنْ أعيشَ سعيداً بعدَ فُرقتِهمْ ... ولا أرى البؤسَ في أرضِ النّوى أبدا

---

(1) لقاء يسيرا.

(2) البعد.

(3) يمشي مشيًا رويدا.

(4) يسرع.

(5) اشتعال.

(6) أخرجت نار الشوق.

(7) أغتني.

لقـد غنيـتُ ولكـنْ مـسّني عـوزٌ   إلـى الـسعادةِ لمـا صـرتُ منفـرِدا
قـلْ للأُلـى حـسدوا للمـالِ مغتربًـا   لو تعلمون الأسى لم تحملوا الحسدا

فلما سمعتُ صوتَه الشاكي، ورأيتُ طرفَه الباكي، وجدتُ لوجدِه، ورثيتُ لبؤسِه وبُعدِه.وبينا نحنُ في بساطِ الشكوى، وحديثِ البلوى، إذ أطلَّ علينا رجلٌ كان يحاذي مجلسَنا، فقال: هل تأذنون لي بالجلوس، ومنادمةِ الكرامِ الجلوس؟ فقلنا: على الرُحْب والسَّعةِ نزلت، وعلى محبتِنا وتوقيرِنا حللت، فقال: نِعمَ القومُ أنتم، وحبذا الحديثُ الذي تحدثتم، أما أنا فإنَّ لي رأيًا يباينُ زميلَ الاغتراب، ورفيقَ البينِ عن الأحباب؛ فأنا في كنفِ[1] الغربةِ منذ سنين، وفي خيراتِ هذا البلدِ الأمين، أعيشُ بين إخواني سعيدا، وإنْ كنتُ عن أهلي بعيدا، وأذوقُ هنا طعمَ الراحةِ والطمأنينة، وترفلُ[2] نفسي تحتَ ظلالِ السكينة، وأجدُ من الأفراحِ أكثرَ من الأتراح[3]، ومن الرخاءِ والهناء، أعظمَ من الشدةِ والعناء، وقد ألفيتُ في غربتي غنى بعد فقر، وجبراً بعدَ كسر، وغادرتني كتائبُ الهمومِ والأحزان، ودخلتُ تحتَ سلطانِ الراحةِ والاطمئنان، فأنا اليومَ مشرقُ الروحِ والبدن، رخيُّ البال في الأهلِ والوطن، موفورُ العيشِ من غيرِ حاجةٍ لأحد، هادئُ النفسِ من مخالطةِ كمد[4]، أهلي وولدي في عافيةٍ وسعة، وأحوالٍ

(1) حضن.

(2) وتتبختر.

(3) الأحزان.

(4) حزن.

مجتمعِة، وكفّي بالإحسانِ ممدودة، وصدقاتي للأقاربِ والأباعدِ غيرُ معدودة، وقد كنتُ قبل اغترابي في ضيقِ حال، وكسوفِ بال، حتى ملّتني الزوجةُ والعيال، ولم يحتفلْ[1] بي جيران ولا آل[2]، والديونُ تلازمُني، والهمومُ تضاجعُني، فأستيقظُ ومؤجِّرُ البيتِ على البابِ يطالبُ بحقِّه، ولم يكن لي بدٌّ[3] من كذبِه بدلَ صدقِه، فأُحيلُه على مليءِ المواعيد، من شهرٍ إلى شهرٍ ومن عيدٍ إلى عيد، حتى مرتْ الأيامُ بمُرِّها، وجاء ما يزيلُ شدةَ ضرِّها، فتسامعَ جميعُ من ذكرتُ باقترابِ سفري، ومفارقةِ حضري، ففرحوا بذلك أيما فرح، فهنّأَ من هنّأَ ومدحَ مَن مدح، ومازالوا على فرحِهم بي ما دمتُ في هذه البلادِ الكريمة، وسحابة الخيرِ فوقَ رؤوسِهم عميمة، فكيف لا أحمدُ اللهَ على نعمةِ الاغتراب، وتجاوزي لتلك المشكلاتِ الصعاب، ثم أسمعَنا قريضَ جُملِه، ومنظومَ جذَلِه[4] **فقال:**

ولقدْ لبستُ من التنعمِ حُلَّةً ... منسوجةً بسعادتي وهنائي

وخلعتُ يومَ البينِ ثوبَ شقاوتي ... ودفنتُ خلْفي كُربتي وعنائي

ووُلِدتُ للعيشِ الكريمِ بُعيدَ ما ... أشرفتُ قبلُ على شفيرِ فَنائي

فلربيَ الحمدُ الجزيلُ فإنما ... بعطائِه ولّى ظلامُ مسائي

---

(1) يعتني.

(2) ولا أهل.

(3) مفر.

(4) فرحه.

فأويـتُ بعـدُ إلـى صـباحِ مـسرّتي   فوجـدتُ مـن داءِ الـشقاءِ دوائـي

وعندما خلبَ[1] هذا المتغربُ قلبي بحديثِه، وبقرَ[2] لي شأنَه بنثيثِه[3]، احترتُ في الحُكم على الغربة، أهي راحةٌ أم كربة! وبينما أنا أتداولُ بين الأمرين، وأترددُ في حالِ المغتربَين، إذ هلّ علينا شيخٌ مهيبُ الطلعة[4]، بهيُّ النَّزعة[5]، فقرأتُ على وجهِه سيما الحكمة والخبرة، وحدّثني مرآه عما يكتنزُ من العِبرة، فعرضتُ عليه حديثَ صاحبيّ المختلف؛ لعلي أنْ أجدَ لديه ما به يئتلف.

فقال: اسمعوا يا أبنائي قولي؛ فإنه ليس بحولي ولا طولي، ولكنها أمانةُ المشورة، وزكاةُ الحِكمِ المأثورة، والتجربةِ المستقاه، من مرورِ الزمان ولُقياه.

إنّ الإنسانَ في هذه الحياةِ القصيرة، والمدةِ اليسيرة، يتقلبُ بينَ أحضانِ الأحوال؛ من فقرٍ إلى مال، ومن سعةٍ إلى إقلال، ومن حزنٍ إلى سلوان، ومن راحةٍ إلى أحزان، فليس يعدمُ المرءُ في هذه الدنيا من كدرٍ في نعمائِه، ومن ألطافٍ في بلوائِه، فالحياةُ مشوبةٌ[6] بالحال وضدِّها، ولا يملكُ أحدٌ شيئًا لردِّها، فالغربةُ

---

(1) فتن القلب وأثر عليه.

(2) فتح.

(3) بإفشائه.

(4) الوجه.

(5) **النزعة:** مَوضِع انحسار الشّعْر من جَانِبي الْجَبْهَة.

(6) مخلوطة.

وإنْ كانَ فيها أحزانٌ ومنغصات، وذكرياتٌ تستدرُّ[1] الدمعات، إلا أن فيها مصالحَ عظيمة، ودفعًا لمضراتٍ جسيمة، والإقامةُ مع الزوجةِ والعيال، والأقاربِ والآل، وتركُ الغربةِ إيثاراً لهذه المنافع، وحرصًا على الأوطانِ والمرابع؛ إلا أنها على بعضِ الناسِ فقرٌ وإقلال، وهمٌّ وإملال، فلا أحسنَ من الرضا بما عليه الإنسانُ من الحال، وتكييفِ نفسِه على ما قُدِّرَ لها من الأحوال، ومدافعةِ ما ينغصُ على المرءِ هناه، ويكدِّرُ عليه صفوَ الحياه، فمن رأى أنّ الغربةَ خيرٌ له فليصبرْ على آلامِ فراقِ الزوجةِ والبنين، وتطاولِ الشهورِ والسنين، وعلى أوجاعِ التعزبِ والحنين، ومن رأى أنَّ الإقامةَ أفضلُ له من الظعن[2]، وهجرِ الأهلِ والسكن، فليصبرْ على ما قد ينزلُ به من غمومِ القلّةِ، ولفحاتِ الحاجة والعيلة[3]، **ثم أنشأ يقول:**

إذا ما شئتَ أن تحيا سعيداً ... قليلَ الهمِّ مرتاحَ الفؤادِ
طليقَ البالِ من قيدِ المآسي[4] ... فلا تسخطْ شؤونَك في الرشادِ
وعانِقْ بالرضا المقدورَ واقطعْ ... شَعاعَ[5] القلبِ من وادٍ لوادِ
فما أحلى الحياةَ وحالتَيْها ... لراضٍ -ظلَّ- عن ربِّ العبادّ

---

(1) تسيل.

(2) السفر.

(3) الفقر.

(4) الأحزان.

(5) تفرق.

وهنا هطل[1] على القلوب نثرُ الشيخ ونظمُه، وقضى فيما جرى حُكمُه وعِلمُه، فسمعْنا ووعينا، ودعونا له وشكرنا، فلما انفضَّ المجلسُ عرفتُ من حديثِ الشيخِ شخصَه، ولم أحتجْ بعد دُررِ حكمتِه فحصَه[2]، فإذا هو شيخنا الحارث الهمام، وإن أخفتْه عنا الأعوامُ تلوَ الأعوام.

(1) نزل.

(2) الكشف عنه.



المقامة الرُّوسية الأوكرانية

أخبرَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: دهى[1] العالَمَ هذه الأيامَ خَطبٌ كبير[2]، يُنذِرُ بشرٍّ مُستطِير[3]، وغدا حديثَ الناسِ في كلِّ مكان، وأمرًا يرقُبون جديدَه من زمانٍ إلى زمان، يُفكِّرون في مستقبلِه الوخيم[4]، أكثرَ من التفكيرِ في حاضرِه الأليم، يتوجّسون[5] منه خِيفة، وهم يرون كلَّ يومٍ وجِيفة[6]، يزدادُ مع مرورِ الأيامِ في الاتساع، ويتوثّبُ[7] كلَّ آنٍ[8] نحو الاندفاع، يراه المراقبون بوّابةَ هلاكٍ عام، وهجومِ الموتِ الزُّؤام[9]، وحصولِ العناءِ التام، الذي لم يجرِ مثلُه في سالفِ الأيام.

يمشي رويداً رويداً إلى آتٍ مجهول، وقادمٍ مظلمٍ مهول.

---

(1) أصابته داهية.

(2) **الخطب**: الأَمر الشَّديد يكثر فِيهِ التخاطب.

(3) فاشٍ منتشر.

(4) سيء العاقبة.

(5) يستمعون مع خوف.

(6) اضطرابه.

(7) يتقدم.

(8) وقت.

(9) العاجل السريع.

حربٌ روسيةٌ أوكرانية، وعاصفةٌ شرقيةٌ غربية، ورياحُها السَّمومُ ما فتئتْ[1] تهب، وخُطاها نحوَ التصعيدِ ما برحتْ تدب.

فقلتُ لنفسي: إن الحقائق لا تبدو جليّة، ولا تلجُ[2] إلى العقولِ نقية، في آفاقِ إعلامٍ غلبَ عليه التمويهُ[3] والتدليس، وحكمَه الدجلُ[4] والتلبيس، وفي جوٍّ أمسى سياسيًّا كليلٍ ديجور[5]، حكمَه قتامُ[6] تضليلِ الجمهور، فالأخبار في هذا العكَرِ[7] مضطرِبة، والأحكامُ عبرَ أبواقِه متقلِّبة، والتحليلاتُ سلعةٌ حسبَ اشتهاءِ المشتري؛ فلهذا التبسَ فيها الصادقُ والمفتري.

فقلتُ: لو استنرتُ في هذه الظلماء، بمقباسٍ[8] من مقابسِ الضياء، حتى يُجلِّيَ ليَ الحقيقة، ويهديَني فيما قصدتُه إلى أقومِ طريقة؛ لعلي أعي حالَ ما يجري، وأكونَ على بينةٍ من أمري، فأصدرُ أحكامي بعد التحرّي، قبل ركوب الظنونِ والتجرِّي.

فحملتُ عزيمةَ الرحلة، وركبتُ مطيّةَ النُّقلة، إلى ذي الفَهمِ الوقّاد، صاحبِ

(1) مازالت.

(2) ولا تدخل.

(3) الخداع.

(4) الكذب.

(5) مظلم.

(6) غبار أسود.

(7) الكدر.

(8) **المقباس**: الْعود وَنَحْوه تقبس بِهِ النَّار.

المعرفةِ في كلِّ واد، أبي الحارثِ المفضال، أهلِ العلمِ والنوال.

فيممتُ جنابَه، حتى طرقتُ بابَه، ففتحَ لي وحيّا ورحّب، وساق حديثَ سعادته بزيارتي وأطنب.

فقلتُ: قد خَبَبْتُ[1] إلى دارِك، وهرعتُ[2] إلى جوارِك، أطلبُ من رأيِك السداد، لأهتديَ به إلى الرشاد.

فقال: قلْ أسمع، لعلي أن أَنفع.

فقلتُ: لا تخفى على سمعِك وبصرِك أخبارُ الحربِ الدائرة، وأصواتُ المخاوفِ العديدةِ المتكاثرة، ولا يعزُبُ[3] عن عقلِك الخصيبِ[4] أن وراءَ الأكمةِ ما وراءها، وأنّ حقيقةَ المعركةِ أكبرُ مما نرى عليه أنحاءَها، فجئتُ إليك حتى تريَني وجهَ الحقيقة، وتدلَّني إلى سبيلِ التصوراتِ الدقيقة، وتنصحَني في هذه المعامعِ نصيحةً جامعة، تكونُ لي من شرِّها عصمةً نافعة.

فاستوى أبو الحارثِ بعدَ أن تنهّد، وشرعَ في الجوابِ وما تردد.

فقال: اعلمْ يا أبا الفضل، يا أخا الصدقِ والعدل، أنّ حقيقةَ هذه الحياةِ الموقوتةِ لا تدومُ على حال؛ فالراحةُ يطاردُها العناء، والسعادةُ يتلوها الشقاء،

---

(1) أسرعت.

(2) وأسرعت.

(3) لا يغيب.

(4) كثير الخير جيد الرأي.

والابتسامة يتبعُها البكاء، والضياءُ تعقبُه الظلماء، والسلامُ موعودٌ بحروبٍ دامية، واتفاقاتُ الوئامِ تغدو بعدَ حينٍ أوراقًا ذاوية[1]، والتحالفاتُ في عالمِ اليومِ نكاحُ متعة، ومركبُ ختلٍ[2] وخُدعة، لا تمتدُّ إلا ريثما تندفعُ المكارهُ وتتمُّ المصالح، وبعدَها يطلعُ قرنُ التنمرِ[3] والمقابح، والأقوياء لا تدومُ قوتُهم فلقوتِهم زمانٌ محدود، والقادرون لا تستمرُّ قدرتُهم فلقدرتِهم أوانٌ معدود.

ثم رفعَ عقيرتَه[4] **قائلاً:**

وما هذهِ الدنيا لدى كلِّ عاقلٍ ... سوى قشّةٍ في لُجّةٍ تتقلّبُ
يراها جهولُ الناسِ تَبقى وما دَرى ... بأنّ رواها[5] إنْ أتى فسيذهبُ
فيا عجبًا كم تزجرُ المرءَ عِبرةٌ ... وكم تكذبُ الأيامُ والدهرُ قُلَّبُ
ولكنّه ينأى عن الوعظِ قلبُهُ ... فيصحو على كفِّ الندامةِ يندُبُ[6]

ثم قال: اعلم: أن ما يجري لا يخرجُ عن قدرِ الربِّ الحكيم، ولا يغيبُ عن عينِ البصيرِ العليم، وما الناسُ كل الناسِ إلا منفِّذون لقضائه الذي سبق به علمُه، وخطّه في الأزلِ قلمُه، وكلُّ ذلك وراءه حِكمٌ سديدة، وغاياتٌ ربانيةٌ

(1) ذابلة.

(2) خداع.

(3) التنكر.

(4) صوته.

(5) منظرها الحسن.

(6) **ينأى**: يبعد. **يندب**: يعدِّد محاسن ما فات.

حميدة، الناسُ عنها في جهلٍ أو غفلة، وسينكشفُ بعضُها لبعضِهم بعد مُهلة، فلا يظننّ أحدٌ أن الأمرَ خارجٌ عن إرادتِه، وفي منصرَفٍ عن علمِه ورؤيتِه، فليهدأْ رُوعُك[1]، ولا يضِقْ فيما يجري وسعُك.

واعلم كذلك: أن أطرافَ الصراعِ غربيّها وشرقيّها، قصيّها ودنيّها؛ قد أوغلوا[2] في دماء المسلمين كثيرا، وأسرفوا في إرهاقِهم إسرافًا كبيرا؛ فكم قتلوا منا وشرّدوا، وعَذّبوا وصفّدوا[3]، وخطّطوا للقضاء على الإسلام وأبرموا[4]، وفتلوا[5] حبالَ المشكلاتِ لنا وأحكموا، ولم تعطفْ قلوبُهم على بكاءِ يتامانا، وعويلِ أراملِنا وأيامانا، وسيلانِ دمانا، وأكوامِ أشلائِنا.

لقد غرّتهم قوتُهم العدوانية، وخططُ دهاقنتِهم[6] الشيطانية، وتحالفاتُهم السرّيةُ والعلنية، فاعتقدوا أنهم سيبقون في أحضانِ السلامةِ ناعمين، وفي أكناف التوافق آمنين، وعلى شُرفاتِ النظرِ إلى مآسينا ضاحكين، ولم يصغوا لأصواتِ عقلائِهم الناصحين، ونُبهائِهم المحذِّرين لهم من مغبّةِ[7] ظلمهم الغاشم[8]،

(1) قلبك، ذهنك، عقلك.

(2) بالغوا.

(3) وقيّدوا.

(4) وأحكموا.

(5) وأبرموا.

(6) **الدهقان:** الرئيس، والْقَوِي على التَّصَرُّف مَعَ شدَّة خبْرَة.

(7) عاقبة.

(8) الشديد الظلم.

واغتلامِ[1] اعتدائهم المتفاقم[2].

فما يجري بينهم اليوم وسيجري غداً إنما هو ثمرةٌ واحدةٌ من ثمراتِ زرعِهم الأثيم، ومآلٌ محتومٌ من مآلات بغيهم العظيم، فهذا مولودُ جورِهم المشئوم، وجزاءٌ معجّلٌ من العدلِ القيوم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[النحل:33].

فقلتُ: لا عدمتُك معلِّما ملهما، ولا فقدتُك لوذعيًا[3] فهِما.

ولكني أرى الحربَ بين دولتين، فما هذا الفزعُ العام، والهلعُ الذي يربو[4] مع الأيام؟.

فقال: إن المعركةَ -وإن كانت في الظاهرِ بين دولتين- فإنها في حقيقةِ الأمرِ بين قطبين، ووراءَ كلِّ قطبٍ دولٌ قد تدخلُ الحربَ علنا، فيطولُ الاعتراكُ بذلك زمنا، وكلُّ قطبٍ يملكُ من أسلحة الدمارِ الشامل، وأسباب الفناء المتطاول ما يتخوفُ العالمُ من حصولِه في آخرِ المراحل، والاستعانةِ به عند عدمِ جدوى[5] الأسلحةِ الأوائل؛ لأن آثارَ تلك الأسلحةِ الأخيرة، وأضرارَها الكثيرةَ الشريرة، لن تقتصرَ على المتحاربين، ولن تخصَّ دولَ المعترِكين، بل سترمي بشررِها إلى

(1) واشتداد.

(2) الشديد.

(3) ذكيًا سريعًا إلى الفهم والصواب.

(4) يزيد.

(5) نفع.

مساحاتٍ بعيدة، وسيُعاني الناسُ تحت سمومِها معاناةً شديدة، فمن لم يمتْ بالقتل كما يقولون، سيموت بالجوع أو المرض كما يتكهنون.

ولكنّ الأمرَ كلَّه للهِ ربِّ البرية، وليس إلى أحدٍ من البشرية.

فقلتُ: ما دوافعُ هذه الحربِ القائمة، بين هذه الأيادي الظالمة؟

فقال: إن الدوافعَ لذلك كثيرة، وأسبابَ الصراعِ بينهم وفيرة، وما يبدو لنا إنما هو قلٌّ من كثر، ووشلٌ[1] من غُمر[2]، فبين أمريكا وروسيا عداءٌ مستحكِم، وتنافرٌ متقدِّم، وتنافسٌ على زعامةِ العالمِ لا يخفى، وأيامُ مغالبةٍ محتدمةٍ[3] لا تُنسى، فأمريكا لا تريد لروسيا إعادةَ أمجادِ الاتحاد السوفيتي الدارسة، فتنافسَها في السيطرةِ أشدَّ المنافسة، خصوصًا بعدَ التحسنِ الاقتصادي الذي تشهدُه روسيا القيصرية، وشروعِها في الخروجِ من قمقمِها إلى مسابقتها في الشؤون الدولية، فتريدُ أمريكا إغراقَ روسيا في مستنقعٍ لا تستطيعُ الخروجَ من حمأتِه[4]، ولا سرعةَ التعافي من آلامِه وعِلّتِه؛ ولهذا أحكمتْ أمريكا خططًا عدّة، لجرِّ روسيا إلى هذه الحربِ الممتدة، حتى قالوا: إن (بوتين) [5] قد ابتلعَ الطُعم، ولم يعلمْ أنه عينُ السّم، هكذا قال قائلون، وخالفهم آخرون.

---

(1) ماء قليل.

(2) ماء كثير.

(3) مشتدة.

(4) **الحمأة:** الطين الأسود المنتن.

(5) رئيس روسيا في أيامنا هذه.

قلت: فما آثارُ هذه الحربِ على القارةِ العجوز، وكيف إلى سبيلِ السلامةِ منها ستجوز؟

قال: إن أمريكا تريدُ أن تضربَ هدفين معا، لتحققَ غرضًا مجتمعا، وها هي أوروبا الآن تصلُ إليها طلائعُ الحربِ المدبّرة، وتذوقُ شيئًا من مراراتِها المقدّرة؛ فقد غدت تعصفُ بها الأزماتُ الاقتصادية، وتتسعُ بين رؤوسِها الخلافاتُ السياسية، وينذرُها وقودُ الحربِ بكوارثَ ليس لها حد، ولا لانتهاءِ شرِّها من أمد.

ولا غروَ[1]؛ فأوروبا قد غرقتْ في الخطايا، وتمادتْ بالمجاهرةِ بكبرى الرزايا، وغشى[2] آفاقَها رهجُ[3] عظائمِ السيئات، وضجّ بعضُ أهلِها من استفحالِ[4] آثارِ الانحرافات، فكانت بحاجةٍ إلى تطهيرٍ يذهبُ رجْسَها، ويوقظُ فيها حسّها، ولعلها تفيقُ من سكرتِها، بعد تجرعِ عقوبتِها، وليست أمريكا عن ذلك ببعيد، بل هي اليوم تسعى بخطى حثيثةٍ[5] إلى مصرعِها الأكيد ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾[هود:102].

فقلتُ: أليس للعقلِ الماسوني في هذه الحربِ من تدبير، ومشاركةٍ غير

---

(1) ولا عَجب.

(2) وغطى.

(3) غبار.

(4) اشتداد.

(5) سريعة جادة.

مباشرةٍ في هذا الصراعِ المرير؟

فقال: ليس هذا بضلال، بل لعله هو عينُ المقال، فالماسونيةُ ربما هي حاملةُ اللواء، والمذكيةُ للعراكِ في هذه الأثناء؛ لأنها تريد التخلص من ثلثي البشرية، والإبقاءَ على الثلّة الذهبية، فالعالمُ اليوم ازدحمَ بالمليارات، ولم تُجدِ مخططاتُها التدميريةُ للقضاء على أكثرِه في السنواتِ الخاليات، فترومُ[1] اليومَ اللجوءَ إلى آخرِ سهمٍ في جَعبتِها، والاتكاءَ على أفتكِ سلاحٍ في عُدّتِها، حتى يتفانى العالمُ سريعا، بسببٍ يخلقُ موتًا ذريعا.

فالاستعانة بالسلاح النووي أضحى مما يلوّحُ به في الإعلام، وقد يصبحُ واقعًا مفروضًا في قادمِ الأيام، هذا فيما يبدو للناظر، والأمرُ كلّه للهِ في الأولِ والآخر.

قلتُ: فبمَ توصي نجيّك هذه الساعة، وتنصحُ به سائرَ الجماعة.

فقال: انظرْ إلى الأحداثِ بعين الحكمة الإلهية، ولا تنظر بعينِ المصالحِ البشرية، ولا بعينِ الشفقةِ الإنسانية، التي تعطفُ أحيانًا على الظالم، وتنسى ما قد سطّرَ من المظالم، تلك الرأفةُ التي لم يتجرّعْ مُبدوها غصصَ البغي وقهرَه، ولم يذوقوا مرارتَه وحرَّه، ففخارٌ يكسرُ بعضُه بعضا، وأسنانٌ تعضُّ بعضَها عضا؛ فلا ترأفْ ولا تحزنْ لاعتراكِها، ولا تحرصْ على سلامتِها وانفكاكِها، فإنما هي تحصدُ ما زرعت، وتذوقُ علقمَ ما صنعت.

---

(1) فتطلب.

وكن على يقينٍ جازم، واعتقادٍ قائم، على أن الأحداثَ تُسرعُ إلى إيلادِ المستقبل المنشود، ودنوِّ الواقعِ الموعود، الذي ينتظره المؤمنون، ويصدِّقُه الموقنون، وقد صدقَ اللهُ فيما أخبر، وما كذبَ رسولُ اللهِ فيما بشّر.

وعشْ ناعمَ البالِ بلا غموم، ولا تُرسلْ إلى خاطرِك ركضَ الهموم، فأجلُك لا تقدِّمُه حربٌ قائمة، ولا تؤخرُه أزمانُ مسالمة، ورزقُك المكتوب، لن تمنعَه عنك أكفُّ الحروب، ولا غلقُ الحدودِ والدروب.

ثم أنشد:

فعِشْ هذيْ الحياةَ قريرَ عينٍ ... وإنْ لفحتْكَ بالأحزانِ لَفْحَا
فمِن رحمِ المكارهِ والرزايا ... سيُولدُ ما تُحبُّ سَنًا ورِبْحَا
وإنْ رجفَ الفؤادُ لهولِ رعدٍ ... سَيلمعُ برقُهُ بالغيثِ سَحّا
وفي قدَرِ المهيمنِ كلُّ خيرٍ ... سينفحُ طيبُهُ في القلبِ نفْحَا
ويصبحُ في سبيلِك كلَّ حينٍ ... معَ الإيمانِ ليلُ الكَرْبِ صُبحَا

فقلتُ: ما أجملَ ما جلّيتَ وشرحْت، وفقّهتَ ونصحت، ونظرتَ واستشرفت، وإني سأجعلُ ما قلتَ نورَ مسراي، وضياءَ مراحي ومغداي.

ثم ودّعتُه شاكرا، ولحديثِه العذْبِ حافظًا وذاكرا.



المقامة الأبوية

قال مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: أرهقني عقوقُ الأولاد، وأُوقِدَ قلبي منهم أيَّ إيقاد، وبرَّحَ بي(1) طلبُ حسنِ سياستِهم، وأجهدني رومُ(2) رياضتِهم، فكرهتُ المقام، من ضراوةِ الآلام(3)، فخرجتُ من المنزِل، باحثًا عن معزِل، أتنفسُ فيه الصُّعَداء(4)، وأُخفِّفُ عنّي وهجَ البُرحاء(5)، فيمّمتُ(6) روضةً متسعةَ الفِناء، خاليةً من الجلَبةِ(7) والبِناء، لا أسمعُ فيها إلا حفيفَ الأشجار، وغِناءَ الأطيار، وخريرَ الأنهار، فجلستُ ثمّتَ أجولُ في فكري العليل، وأسبحُ في غمي الطويل، وأواترُ(8) بين الشهيقِ والزفير، شاكيًا إلى اللهِ واقعيَ المرير؛ لعلي أجدُ في هذا التفكيرِ مخرجا، وأُلفي في هذه الشكوى فرجا.

---

(1) أثقلني وجهدني

(2) طلبُ.

(3) استمرارها وبقائها.

(4) **الصعداء**: المشقة. وتنفس الصعداء: تنفّس نفَسًا طويلاً من همٍّ أو تعَب فأحسّ بالراحة والاطمئنان.

(5) حرّ الشدة.

(6) قصدت.

(7) الصياح والصخب.

(8) وأتابع.

فبينا أنا تحتَ ظلِّ الصمتِ، في تلك الحال، التي ترسفُ[1] بثقلِ الكَلال[2]؛ إذ بسوادٍ[3] يبدو من ناحيةِ الأفقِ البعيد، فقلتُ: اللهم جليسًا يُسلِّي من الكمدِ[4] الشديد. فلما دنا إذا هو أبو الحارثِ الميمونِ في مجالسِته، المفيدُ في نجواه ومحادثتِه، ففرحتُ بنزولِه، وتفاءلتُ بحلولِه، فنهضتُ إليه مستقبِلا، وصافحتُه متهلِّلا، وقلتُ: أهلاً بنجيٍّ كريمٍ لا يُمل، وجليسٍ تُداوى بالجلوسِ معه العِلل.

فأشرقَ منه الفرحُ برؤيتي، والبشاشةُ اليوم بُعزلتي، فقالَ: ما الذي حملَك على المجيءِ إلى هنا، وتجشّمتَ[5] له المشقةَ والعنا، وتركتَ الحاضرةَ وزحامَها، وهجرتَ جُلّاسَها وأعلامَها؟

فقلتُ: غمٌّ آلمني جثومُه، وبيتٌ أرّقتني همومُه، فلجأتُ إلى هذا المُنتأى رجاءَ التداوي بصمتِه، ولم أدرِ أنك أيضًا قادمٌ إلى جهتِه، فنِعمَ هذا التوافقُ السعيد، في هذا المعتزَلِ البعيد.

فقال: ما الذي أوجبَ غمَّك، وأوقدَ همَّك؟

فقال: عقوقُ أولادٍ لم أزلْ أحسنُ إليهِم، وأمدُّ ظِلالَ الرعايةِ عليهِم، ولا يزيدُهم الزمانُ إلا إساءةً إليّ، دونَ أن أُقصِّر في حقٍّ لهم عليّ.

---

(1) تمشي بثقل.

(2) التعب والضعف.

(3) بشخص.

(4) الحزن.

(5) تكلّفت.

فتنهّدَ تنهّدَ المغتمّ، وزفرَ زفرةَ الحابسِ للهمّ، فكأن حديثي أذكى جذوةَ[1] ألمِه، وفجّرَ بركانَ سقمِه، فقالَ: إنّ الذي آلمَكَ هو ما آلمني، والذي أخرجك إلى هذه العزلةِ هو الذي أخرجني، ثم رفع عقيرتَه[2] المجهدةَ قائلا:

تشكو الذي أشكو ووجدُكَ في النّوى وجْـديْ[3] وإنّـا في الـبلاءِ سـواءُ

تَـساوى بَلانـا مِـن أحبّـاءَ كلّمـا نُرجِّـي هُـداهمْ خـابَ بعـدُ رجـاءُ

ثم قال: يا رفيقَ الحال، وشبيهي في هذا المجال، لقد بُلينا بدهرٍ قلّ فيه الخيرُ والأخيار، وكثرَ فيه الشرُّ والأشرار، ففتحَ أولادُنا عيونَهم على واقعٍ هذه حالُه، وتلك رزاياه وأوحالُه، فذهبَ عن قلوبِهم تعظيمُ العظماءِ والكبار، ونأتْ عنهم الهمةُ نحوَ التنافسِ على الأعمالِ الكبار، ففشا فيهمُ العققةُ للآباءِ والأمهات، وقلّ إصغاؤهم لنصائحِهم في جميعِ الأوقات، فشغلتْهم الشهواتُ عن الطاعات، ورضوا بالتّرهاتِ بدلَ الخصالِ الفاضلات، ورضعوا لبانَ توافهِ الأمور، ووجدوا في وهادِ[4] الدنايا البهجةَ والسرور، وأصغوا آذانَهم لدُعاةِ الصَّغار، وأبواقِ الأهواء والانحدار، فتلوا عليهم الاعتدادَ بالنفسِ في حمأةِ الشهوات، وتقديمَ رأي الذات على برِّ الآباءِ والأمهات، وأوحوا إليهم أن الوالديةَ اليومَ نسخةٌ قديمةٌ لا تفقهُ الواقع، ولا تفهمُ المجالاتِ الرحبةَ لهذا

(1) أشعل جمرة.

(2) العقيرة: الصوت.

(3) النَّوَى: الْبعد والناحية يذهب إِلَيْهَا. والوجد: الحزن.

(4) الوهدة: الأرض المنخفضة.

العالمِ الواسع، فآراؤهم لزمانِهم الداثر[1]، وجيلِ شبابِهم الغابر[2]، قائلين لهم: أما أنتم اليوم فالرأيُ رأيُكم، والزمانُ زمانُ فيئِكم.

هكذا لقّنهم الشياطينُ الأشرار، فصدّقهم الشبابُ الأغمار[3].

لقد كان في الزمانِ الجميل، والدهرِ الراحلِ الجليل، للأمهاتِ والآباءِ منزلةٌ في القلوبِ عظيمة، وهيبةٌ مرئيةٌ جسيمة، إذا أَمروا ابتدرَ الأولادُ إلى الامتثال، وإذا نهوا كفّوا عن منهيِّ الأقوالِ والأفعال، وكانت البيئةُ على البِرِّ مساعِدة، ووسائلُ العقوقِ عنها متباعدة، فاستقامَ ذلك الجيلُ على الإحسان، وعملوا بوصايا الطاعةِ في السُّنةِ والقرآن.

أما هذا الزمنُ فنابيةُ الأصواتِ إلى العقوقِ كثيرة، وطرقُ الإلهاءِ عن الإصغاءِ إلى الوالدينِ وفيرة، فالفراغُ ودعاتُه، والباطلُ ورعاتُه، والجوالُ وخدماتُه، والفسادُ وقنواتُه، والانحرافُ وآلاتُه، والشرُّ وأدواتُه؛ مشارعُ[4] تُغري بعصيانِ الوالدين، والإعراضِ عن سماعِ الأبوين.

فآهٍ من قلةِ البِرِّ والبارين، وكثرةِ العقوقِ والعاقين!

ثم أنشدَ قائلا:

نشكو إلى اللهِ ربِّ العرشِ بلوانا ... ونرفعُ اليومَ بالآهاتِ شكوانا

(1) القديم.

(2) الماضي.

(3) الذين لم يجرّبوا الأمور.

(4) طرق.

فقـد برِمْنـا بعـيشٍ حـين جلّلنـا	عقـوقُ أبنائنـا عمـداً فأضـنانا[1]
لنـا مـن البِـرِّ حـقٌّ يُـؤمرونَ بـه	قـد حقّـه[2] اللهُ ربُّ النـاسِ مولانـا
كـم نعمـةٍ لهـمُ نُهـدي ونمـنحُهمْ	ممـا أبـاحَ لنـا المـولى وأعطانـا
نُعطـي لـراحتِهمْ أهـدابَ راحتِنـا	ونبـذلُ الخيـرَ أشـكالاً وألوانـا
ونسلبُ الجفـنَ نـومَ العـينِ في كـرمٍ	حتى ينـاموا فيغـدو القلبُ جذلانا[3]
نبنـي طفـولتَهمْ في كـلِّ مرحلـةٍ	مِـن هـدمِ أجسامِنا في دهـرِ محيانـا
ونقبلُ المـوتَ عـنهمْ إنْ هفـاْ[4] لهـمُ	ولـو دنـا مـنهمُ الإيـلامُ يلقانـا
نـرى بفـرحتِهمْ أسـرابَ فرحتِنـا	وحـزنُهم بينَنـا يمتـدُّ أحزانـا
لـو يـشعرون بمـا نلقـى لـسعدِهمُ	ومـا نُعـاني علـى أرجـاءِ دنيانـا
ومـا لهـمْ في الحـشا الظـاميْ لعذْبِهمُ	وأيُّ قـدرٍ لهـم في القلـبِ قـد كانـا
لكـنْ عقـوقُهمُ أنـسى أبوّتَنـا	فبادلونـا علـى الإفـضالِ عـصيانا
لـو يعرفـون لنـا حقّـاً ومنزلـةً	لمـا لقِينـا علـى الإحـسانِ كُفرانـا
ولا شـكونا عقوقـاً ظـلَّ يُحرقُنـا	ولا رأينـا مـن الآبـاءِ غـضبانا

فلما سمعتُ نظمَه البديع، ولفحتني منه حرقةُ قلبِه الوجيع، قلتُ: فما

(1) برم: سئم وضجر. جللنا: عمّنا وغطّنا. فأضنانا: فأتعبنا.

(2) أثبته وأوجبه.

(3) فرحانا.

(4) أسرع.

مركبُ النجاة، من هذه المأساة؟

قال: لقد قدحتَ بسؤالِك هذا زِنادَ الفؤاد، ودعوتَنا لنُعمِلَ الفكرَ في تحقيقِ هذا المراد.

فأقول: بدلاً من هذا اللبث، في مشاعل البث[1]، علينا أن نرفعَ أيديَنا بالدعاء، من أجلِ إصلاحِ البناتِ والأبناء، ولا نكلَّ من الاستمرار، في دعاءِ الليلِ والنهار، حتى ولو بدا منهم خلافُ البرِّ والإحسان، والطاعةِ والإذعان؛ فلا يزيدُنا ذلك إلا لهجًا على لهج[2]، حتى يمنّ اللهُ بهطولِ غيثِ الفرج.

وأن لا نغفلَ عنهم، ولا نسأمَ منهم، بل تظلُّ سحابةُ مراقبتِنا ونصيحتِنا عليهم ممتدة، وخطواتُنا في إثرِ خطاهم مشتدة[3].

وأن نرشدَهم إلى مناهلِ الفضائل، والجلوسِ مع الأخيارِ الأماثل[4]، ونستعينَ لذلك بالأصدقاءِ والخِلّان، والأقاربِ والجيران.

وإيانا ودوامَ الاستقصاء، والمحاسبةَ المستمرةَ على كلِّ الأخطاء، والطمعَ في أن يصيروا على أكملِ الأحوال، وأتمِّ وجوه الصلاحِ في الأفعال والأقوال، بل يكفينا من البرِّ جلُّه، وإن لم يأتنا كلُّه، ومتى نظرنا إلى زمانِهم وشرِّه، رضينا من الولدِ ببعض بِرِّه.

---

(1) الحزن.

(2) **لهج**: ثابر واستمر.

(3) مسرعة.

(4) الخيار.

ومتى رأيناهم أساءوا أحسنا إرشادَهم إلى الإحسان، ورسمنا طريقَ الصوابِ بالرحمةِ والغفران، وتركنا التعييرَ بالزلل، والتذكيرَ بوصمةِ[1] الخطل.

وتوشحنا[2] بالرضا والصبر، واحتسبنا على ذلك عند اللهِ الأجر، والزمانُ ذو غِيَر[3]، وصاحبُ عظاتٍ وعِبر، فسيتزوجُ الأولادُ فيكون لهم أبناء، فيتذكرون بمعاملتِهم الأمهاتِ والآباء، فيعرفون بهم كم كان آباؤهم بهم رحماء، وكم تجرعوا منهم كؤوسَ الحزنِ والعناء، فيستدركون من البر ما بقيتِ الأمهاتُ والآباءُ في الدُّور، أو يذرفون الدموع مترحمين عليهم إذا سبقوا إلى القبور.

قال الراوي: فلما انتهى أبو الحارثِ من بيانه، وما ساقَ فيه من آهاتِه وأشجانِه[4]، ونصحائِه التربويةِ النافعة، وإرشاداتِه الأبويةِ الجامعة؛ فرّج من غمّي ما فرّج، ودلّني على سبيلِ السلوانِ والمخرج، فعاهدتُه على السيرِ على هذا المنوالِ الرشيد، وسياسة أولادي على هذا النهجِ السديد.ثم رجع كلٌّ منّا إلى بيتِه وقد نفضَ عنه غبارَ الغم، وأزاحَ عن عينيه غشاوةَ[5] الهمّ.

---

(1) بعيب.

(2) ولبسنا.

(3) **غِيَرُ الدهر**: أحواله وأحداثه المتغيرة.

(4) وأحزانه.

(5) غطاء.



المقامة الشِّعرية

قالَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: ضمّني وأصدقاءَ مجلسُ أُنسٍ وأدب، وأجرينا فيه خيلَ الإنشادِ حتى بلغْنا الأَرب[1]، وقضينا في المساجلةِ[2] الأوطار[3]، بذكرِ شعراءِ الأعصارِ على اختلافِ الأمصار، فتذاكرنا في الشعرِ والشعراء، وتقاولْنا[4] فيمن أحسنَ منهم ومَن أساء، وأمتعنا آذانَنا بالأبياتِ النادرة، والقصائدِ العذبةِ السائرة، فمررنا بالعصرِ الجاهلي على امرئِ القيسِ ونسيبِه[5] الذائع، وعمروِ بنِ كلثوم وفخرِه الواسع، ثم دلفنا[6] إلى العصرِ النبويِّ فذكرنا حسانَ ونَبوياته، وكعبَ بنَ زهيرٍ واعتذارَه في أبياتِه، ويممّنا[7] ديارَ العصرِ الأمويِّ فاغترفنا من بحرِ جريرٍ بعضَ هجائياتِه، وحملنا من جنادلِ[8] الفرزدقِ نماذجَ من صولاتِه[9]،

(1) ورمانا.

(2) المباراة والمعارضة الشعرية.

(3) الحاجات.

(4) وتجادلنا.

(5) **النّسيب**: التّغزُّل بذكر محاسن المرأة.

(6) مشينا.

(7) وقصدنا.

(8) صخور.

(9) سطواته في الهجاء.

ومررنـا بالعـصرِ العباسـيِّ وأطلنـا الوقـوفَ في عرصـاتِه، وتناشـدنا قـريضَ لاتِ الـشعرِ وعُـزّاه ومناتِـه؛ فركبنـا علـى سُـحبِ أبـي الطيـبِ إلـى ريـاضِ أوصـافِه المتأنقة[1]، وامتطينا صهواتِ حبيبٍ إلى مرابعِ حِكمِه المشرقة، وخضنا بحرَ أبي الوليدِ إلى إبداعِ صورِه وتشبيهاتِه، وحلاوةِ قصائدِه وأبياتِه.

وظلينا نمرُّ بشعراءِ العصور، ممن أقامَ في البوادي أو القصور، حتى أنخنا ركابَنا في عصرِنا الحاضرِ وشعرِه وشعرائِه، وطفِقنا[2] نتحدثُ عن كدرِه وصفائِه، ومن سارَ على نهجِ الإبداعِ من أهلِه، ومن تنكّبَ[3] مهيعَ[4] الإحسانِ في قولِه.

وبينا نحنُ على حالِنا التي وصفت، وتناشدِنا الذي ذكرت؛ إذ سمعنا طرقَ البابِ بأدبٍ جم[5]، فقلنا: اللهم طارقًا يجلبُ الخيرَ العم[6]، فأسرعتُ نحوَ البابِ من بينِ الجماعة، فقلتُ: من الطارقُ هذه الساعة؟ فقال: ناشدُ أدبٍ من أربابِه، ومجتدي[7] علمٍ من أصحابِه.

ففتحتُ البابَ فإذا هو أبو الحارثِ الأديب، ذي العقلِ الخصيب[8]،

---

(1) المعجبة الحسنة.

(2) وجعلنا.

(3) عدل.

(4) **المهيع**: من الطّرق الْبَين.

(5) كثير.

(6) الكثير.

(7) وطالب.

(8) كثير الخير جيد الرأي.

والرأيِّ المصيب، فأشرقتْ نفسي جذلا[1]، وبشّرتُ ذوي سمري عجِلا، فقلتُ: لقد طلعتْ عليكم في هذا الدجى شمسُ النهارِ، فأطفئوا مصابيحَكم بهذا الإسفار، فما يصنعُ نورُ المصباح، وقد هلَّ نورُ الصباح؟

فرحبنا بِه أجملَ ترحيب، وأنزلناه في المكانِ الرحيب[2]، **وقلنا**: لقد حضرَ هذه الليلةَ مسكُ الختام، وزينةُ الأدبِ في هذه الأيام، فما أجملَ أنْ نقضيَ بقيةَ ليلتِنا تحتَ ظلالِ أدبِهِ الواسع، ونشمُّ عبيرَ الشِّعرِ من روضِه الأنيقِ الجامع.

فقلنا له: أنتَ فينا بحرُ الشعر الذي لا ساحلَ يحدُّه، وقَطرُ الأدبِ الذي لاعادَّ يعدُّه، فاروِ لنا الساعةَ من حَسنِ الشعرِ ما يكشفُ عن سمّوه وسناه[3]، ويُعرِبُ عن أهميتِه وعُلاه، ويجلّي عن الحيِّ منهُ والميْت، سواءٌ أكانَ في أبياتٍ أم بيت.

فقال: إنّ الشعرَ في هذا لكثير، وإنّ نهرَ العربيةِ بهذا لغزير، لكن ألم تسمعوا قولَ الطائيِّ المُسْتَعْذَبِ النَّظْم ، المتفنّنِ في قولِ الشعرِ الفخم:

وإنّ العلا ما لم ترَ الشعرَ بينها	**لكالأرضِ غُفلاً[4] ليس فيها معالمُ**
وما هو إلا القولُ يسري فتغتدي	**لَـهُ غُـرَرٌ في أَوْجُـهٍ ومَوَاسِـمُ**
يُرى حِكْمَةً ما فيهِ وهْوَ فُكَاهَةٌ	**ويُقْضى بما يَقْضِي بهِ، وهْوَ ظَالِمُ**

(1) فرحا.

(2) الواسع.

(3) وعلاه.

(4) ليس عليها علامة.

ولـولا خِـلالٌ سـنّها الـشعرُ مـا درى بغاةُ الندى[1] من أين تؤتى المكارمُ.

وقولَه الآخر:

ولوْ كانَ يفنى الشِّعرُ أفناهُ ما قرتْ[2] حِياضُكَ منهُ في العـصورِ الـذَّواهبِ
ولكنَّهُ صوْبُ[3] العقـولِ إذا انجلـتْ سـحائبُ منـهُ أُعقبـتْ بـسحائبِ.

واسمعوا قولَ دعبلِ بنِ علي، في هذا القولِ الجلي:

يَقولونَ: إِنْ ذاقَ الـرَّدَى مَـات شِـعرُهُ وهيهاتَ عُمْرُ الشعرِ طالـتْ طوائلُـهْ
وَهَبْ شِعْرَهُ إِنْ مـاتَ مـاتَ فـأيْنَ ما تَحَمَّلَــهُ الــراوونَ والخــطُّ ناقِلُــهْ
سأقـضي ببيـتٍ يحمـدُ النـاسُ أمرَهُ ويَكثـرُ مِـنْ أَهْـلِ الرِّوَايـةِ حامِلُـهْ
يَمـوتُ رَدِيءُ الـشِّعرِ مِـنْ قَبْـلِ أَهْلِـهِ وجيّــدُهُ يَبقــى وإنْ مــاتَ قائلــهْ.

وقولَه الآخر:

فــرُبَّ قافِيَــةٍ بــالمزحِ جاريــةٍ مـشبوبةٍ لـم تـردْ إنماءَهـا نمـتِ
إِنّــي إذَا قُلْــتُ بَيْتــا مــاتَ قائِلُــهُ ومَـن يُقـالُ لـهُ، والبَيْـتُ لـم يَمُـتِ

فقلنـا: ألا رويـتَ لنـا شـعرَ شـاعرٍ يـصفُ شـعرَه بالإحـسان، ويبـيِّنُ فيـه تحكيكَه[4] ألفاظَه، وتنقيتَه أسلوبَه زمانًا بعد زمان، فيخرجُ شعرُه للناسِ وقد

(1) طالبو المعروف.

(2) جمعتْ.

(3) مطر.

(4) تنقيحه وإدامة النظر فيه.

تضمّخَ[1] بالجودةِ واستوفى، وأصبحَ من كلِّ عيبٍ مصفّى.

فقال: ألم تسمعوا قولَ عبدِ العزيزِ بنِ حاتم، وهو للفرزدقِ مهاجٍ ومخاصم:

أنفي قَذَى الشِّعرِ عنهُ حينَ أقْرِضُه ... فما بِشعْريَ من عيبٍ ولا ذامِ[2]

كأنّما أصْطَفي شِعري وأغرِفُه ... من مَوْجِ بحْرٍ غزيرٍ زاخرٍ طامِ[3]

منهُ غرائِبُ أمثالٍ مُشهَّرةٍ ... ملمومةٍ زانها رَصْفي وإحكامي.

قلنا: لقد كثرَ في زمانِنا العقوق، وهُضِمَ الآباءُ والأمهاتُ الحقوق، وسمعْنا عن أبناءٍ يُفضِّلون زوجاتِهم، على أمهاتِهم، ويُعرِضون عنهن إلى أمهاتِ أولادِهم، فتشكو الوالداتُ من جفائِهم وهناتِهم[4]، فهل حفلَ[5] شعرُ العربِ، وتضمنّتْ كتبُ الأدب، أبياتًا قالتْها أمٌّ تشكو هذا الهمَّ العظيم، وتتوجعُ من هذا العملِ الأثيم، وتذكرُ العداءَ بين الكَنَّةِ[6] وحماتِها[7]،وتنعتُه بألمٍ في أبياتِها؟

فقال: نعم، هذه أم ثوابٍ الهزانية تشكو بحرقةٍ كبيرة، عقوقَ ابنِها وحنقَ[1]

---

(1) تلطخ.

(2) ولا عيب.

(3) **الزاخر والطامي:** الكثير الفياض.

(4) وشرورهم وفسادهم.

(5) جمع.

(6) امرأة الابن أو الأخ.

(7) **الحَماةُ:** أُمُّ الزَّوْجِ.

وحنقَ[1] زوجتِه الشريرة فتقول:

رَبَّيْتُـهُ وَهْـوَ مِثـلُ الفَـرْخِ أعْظَمُـهُ ... أُمُّ الطَّعـامِ تـرَى في جِلْـدِهِ زَغَبـا[2]

حتــى إذَا آضَ كَالفُحّــالِ شَــذَّبَهُ ... أبـارُهُ وَنَفَـى عَـنْ مَتْنِـهِ الكَرَبـا[3]

أنْــشَا يُمــزِّقُ أثْــوَابي يُــؤَدِّبُني ... أبَعْدَ شَيْبِيَ عِنْدِي يَبْتَغي الأَدَبَا!

إنّـي لأُبْـصِرُ فِـي تَرْجِيـلِ لِمَّتِـهِ[4] ... وَخَـطَّ لِحْيَتِـهِ فِـي خَـدِّهِ عَجَبَـا

قالَـتْ لـهُ عِرْسُـهُ يَوْمـا لِتُـسْمِعَني ... مَهْـلاً فـإِنَّ لنَـا في أُمِّنـا أرَبَـا[5]

وَلَــوْ رَأَتْنِــيَ فِــي نــارٍ مُــسَعَّرَةٍ ... ثُمَّ اسْتَطاعَتْ لزَادَتْ فَوْقَها حَطَبا

ثم إننا قلنا: إننا-كما ترى-شببةٌ يجري بِنا الهوى في ملاعبِه، ولولا التّقى لانسقْنا إلى معاطبِه، لكنّنا نحبُّ أن نسمعَ من رقيقِ الشعرِ في هذا الباب، ما يمكنُ أنْ يتناجى به الأحباب، مما ليس به ذمٌّ ولا عاب[6].

فقال: خذوا قولَ ابنِ الفارضِ وهو يشكو هجرَ محبِّيه، ويشرحُ شدةَ عذابِه وصبره على ما هو فيه:

---

(1) وغضب.

(2) **أم الطعام**: البطن. **والزغب**: صغَار الريش.

(3) **آض**: رجع. **والفحال**: فحل النحل. **والأبار**: الملقح للنخل. **والكرب**: أصول الأعذاق تترك كالأوتاد ليرتقي بها في النخل.

(4) شعر رأسه المجاوز شحمة أذنه.

(5) حاجة.

(6) ولا عيب.

أحبَّـةَ قلبـي والمحبَّـةُ شـافعي ... لـدَيكُمْ، إذا شِـئتُمْ بهـا اتّـصَل الحبـلُ
عـسَى عَطفَـةٌ مـنكُمْ عَلـيَّ بنَظـرَةٍ ... فقـدْ تعبـتْ بينـي وبيـنكمُ الرُّسْـلُ
وتعـذيبكمْ عـذبٌ لـديَّ وجـورُكمْ ... علـيَّ بمـا يقـضي الهـوى لكـمُ عـدلُ
وصـبريَ صـبرٌ عـنكمُ وعلـيكمُ ... أرى أبـداً عنـدي مرارتَـهُ تحلـو
أخذتمْ فؤادي وهوَ بعضي فما الَّذي ... يَـضرّكُمُ لـو كـانَ عِنـدَكَمُ الكُـلُّ
نـأيتمْ فغيـرَ الـدَّمعِ لـمْ أرَ وافيـاً ... سوى زفرةٍ منْ حرِّ نارِ الجوى تغلو[1]
فـسهديَ[2] حـيٌّ في جفـوني مخلَّـدٌ ... ونـوميْ بهـا ميْـتٌ ودمعـيْ لـهُ غـسلُ

واسمعوا نصيحةَ الأعرابيةِ وموعظتَها، واستجيبوا لإرشادِها ودعوتِها، فهي تصفُ الهوى المستبدَّ بالهوان، الذي يلقاه أسيرُه في السرِّ والإعلان، تقول:

ليتَ الهوى لذوي الهوى لم يُخلقِ ... بـلْ ليـتَ قلبـي بـالهوى لـم يَعلـقِ
إن الـذي عَلِـق الهـوى بفـؤادِه ... كمنـوَّطٍ[3] دون الـسماءِ مُعلَّـقِ
لا يـستطيعُ نزولَـه لـشقائِه ... لكـنْ إليـهِ كـلُّ هـمٍّ يرتقـي
إن الهـوى لهـوَ الهـوانُ بعينِـه ... مـا ذاقَ طعـمَ الـذلِّ مَـن لـم يعـشقِ.

قلنا: إنّ رثاءَ الرجالِ لزوجاتِهم وأولادِهم لكثير، والشعرُ فيه موفورٌ غزير، فهل من شعرٍ لامرأةٍ ترثي وليدَها المفقود، وتبكيه بعد أن غيّبتهُ اللحود، وشعرِ

(1) **نأيتم**: بعدتم. **والجوى**: العشق. **وتغلو**: تزيد وترتفع.

(2) فسهري.

(3) **علق**: تشبث. **والهوى**: الحب. **وكمنوط**: كمعلّق.

امرأةٍ أخرى تندبُ زوجَها بأبيات، بعد أنْ صارَ في عدادِ الأموات؟

فقال: اسمعوا قولَ أعرابيةٍ ترثي ولدَها فتلهبُ الأكباد، وتستشرفُ لحياتِها بعدَه قربَ النفاد[1]، تقول:

يا قرحةَ القلبِ والأحشاءِ والكبدِ ... يا ليتَ أمّكَ لم تحبلْ ولم تلدِ
لما رأيتُك قد أُدرجتَ في كفنٍ ... مطيَّبًا للمنايا آخرَ الأبدِ
أيقنتُ بعدك أنّي غيرُ باقيةٍ ... وكيف يبقى ذراعٌ زالَ عن عضدِ.

وهذه أعرابيةٌ أخرى ترثي زوجَها الفقيد، وتذكرُ حالَها معه في العيشِ الرغيد، **تقول:**

كنّا كغصنينِ في جرثومةٍ بسقاْ[2] ... حينًا على خير ما ينمى به الشجرُ
حتى إذا قيلَ قد طالتْ فروعُهما ... وطاب قِنواهما واستنظرَ الثّمرُ[3]
أخنى على واحدٍ ريبُ الزّمانِ[4] وما ... يُبقي الزّمانُ على شيءٍ ولا يذرُ
كنّا كأنجمِ ليلٍ بيننا قمرٌ ... يجلو الدّجى فهوى[5] من بيننا القمرُ

وهذه امرأةٌ أخرى تقفُ على قبرِ زوجِها وقفةً حزينة، وهي في أبهى منظرٍ وزينة، فتنادي زوجَها وهي في تلك الحال، ودموعُها تسبقُ كلماتِها على الرمال، **تقول:**

---

(1) الانتهاء.
(2) **الجرثومة**: التُّراب الْمُجْتَمع حول أُصول الشّجر. بسقا: ارتفعا.
(3) **القنو**: الغصن بِمَا فِيهِ من الرطب. **واستنظر**: تأخر.
(4) **أخنى**: أهلك. **وريب الزمان**: حوادثه.
(5) فسقط.

يا صَاحبَ القبرِ يا مـن كـان يؤنـسُني ... وكـــانَ يُكثِــرُ في الـــدُّنيا مُؤاتَـــاتي
قد زُرتُ قبـرَك في حَلْيي وَفي حُللي ... كـأنّني لَـستُ مـن أهـلِ المُـصيباتِ
لزمـتُ مـا كنـتَ تَهـوَى أن تَـرَاهُ وَمـا ... قـد كنـتَ تَألَفُـه مـن كـلِّ هيئـاتي
فَمـــنْ رآني رأى عَبْـــرَى مُوَلَّهَـــةً[1] ... مَـشهورَةَ الـزِّيِّ تَبكـي بـينَ أمـوَاتِ.

فقلنا: إن الصفحةَ الأخيرةَ من عمرِ الحياةِ كثيرةُ الرجفان، لا يثبتُ فيها اللسانُ ولا الجَنان، حينَ يكونُ المرءُ على علمٍ بدنوِّ الأجل، وفواتِ البقاءِ والأمل، فهل هناك شاعرٌ سطّرَ هذا الشعورَ قبلَ موتِه بلحظات، وذكرَه في عددٍ من الأبيات؛ فإننا سمعنا عن عَبيد، في الزمنِ البعيد، أنه لم يقدرْ على القولِ عندما نزلَ القضاء، بين يدي المنذرِ بنِ ماءِ السماء، وسطّرَ كلمته الخالدة: (حَال الجريض[2]، دون القريض[3]).

فقالَ: ألمْ يأتكمْ نبأُ تميمِ بنِ جميل، حينَ دنتْ منه ساعةُ الرحيل، بين يدي المعتصمِ وقد أحضرَ السيفَ والنطعَ[4] لقتلِه، ونزلَ به الرعبُ وشدةُ هولِه، حيثُ قال:

أرى الموتَ بين النَّطْعِ والسيفِ كامنًا ... يُلاحظُنـي مـن حيـثُ مـا أتلفَّـتُ
وأكبـرُ ظنّـي أنــك اليــوم قــاتلِي ... وأيُّ امـرئٍ ممـا قـضى اللهُ يُفلِـتُ

---

(1) **عبرى**: دامعة. **ومولعة**: ذاهبة العقل من شدة الحزن.

(2) الغصة عند الموت.

(3) الشعر.

(4) **النطع**: بِسَاط من الْجلد كثيرًا مَا كَانَ يقتل فَوْقه الْمَحْكُوم عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ.

وأيُّ امـرئٍ يُـدلي بعـذرٍ وحُجـة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَتُ

يعزُّ على الأوسِ بنِ تغلبَ موقفٌ ... يُسلُّ عليّ السيفُ فيه وأسكتُ

وما حَزَني أني أموتُ وإنّني ... لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقّتُ

ولكنَّ خَلفي صِبيةً قد تركتُهمْ ... وأكبادُهمْ من حسرةٍ تَتفتّتُ

كأني أراهمْ حين أُنعى إليهمُ ... وقد خَمشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا

فإن عشتُ عاشوا خافضين[1] بنعمةٍ ... أذودُ الردى عنهمْ وإن مِتُّ مُوِّتوا

فكم قائلٍ لا أبعدَ اللهُ دارَهُ ... وآخرَ جذلانٌ[2] يُسرُّ ويَشمتُ

فلما سمعَ المعتصمُ هذه الأبياتَ الرائقة، في تلك الساعةِ الحرجةِ الخانقة؛ عدلَ عن رأيِه في قتلِه، بل صيّره من أهلِ عطائِه ونولِه.

قال الراوي: فلما أسمعَنا ما طلبنا من غيرِ تباطء ولا ملال، بل كانَ ينصبُّ في روايتِه انصبابَ السيلِ من الجبال؛ قلنا له: لقد أتحفتَنا الليلةَ بمنقولِك، فهلّا ختمتَ سمرَنا بهذا بمقولِك؛ فأنتَ شاعرٌ متأنق[3]، وفحلٌ[4] متنوِّق[5]، مليحُ

(1) متسع عيشهم.

(2) فرح.

(3) حسن.

(4) وفائق.

(5) مجيد.

مليحُ الديباجةِ[1] رائقُ الأسلوب، تغزو بشعرِك النفوسَ فتسبي القلوب.

فقال: أما إذا قد رمتمْ ذلك فلستُ براد رغبةَ وادٍّ، لاسيما والطالبُ من أهلِ الوداد.

فرفعَ عقيرتَه[2] **وأنشد:**

الـشِّعرُ ترجمـةُ النفـوسِ وبوحُهـا ... والنـاطقُ الرسـميُّ عـن أخبارِهـا
ومذيعُ ما تُخفي القلوبُ عن الورى ... والمرسَـلُ الماضـي إلـى أسـرارِها
لا يـستريحُ المـرءُ بعـدُ إذا غـدتْ ... أشـعارُه تكـويْ[3] الفـؤادَ بنارِهـا
فـإذا هفـتْ نحـوَ الـضياءِ تهلّلـتْ ... نفـسٌ تلظّـتْ في جحـيمِ سعارِها[4]
هـل خلّـدَ الـذِّكرَ الجميـلَ مُخلِّـدٌ ... عـن أمـةٍ بـادتْ سـوى أشـعارِها؟
هُـوَ للـشؤونِ نظامُهـا وحفيظُهـا ... وسـجلُّها البـاقي مـدى أدهارِهـا
يـصفُ الـسخاءَ لـدى النفـوسِ فيمّحي ... بـصباحِه الزاهـي دُجـى إقتارِهـا
يُزجيْ الجبانَ إلى الشجاعةِ في الـوغى ... فيهـونُ في الجُلَّـى[5] عنـاْ أضـرارِها
ويخلِّـدُ الأخـلاقَ عـن أصـحابِها ... ويُطيـلُ في الـدنيا مـدى أعمارِهـا

---

(1) الأسلوب.

(2) صوته.

(3) تحرق.

(4) **هفت:** أسرعت. **تظلت:** اشتعلت. **سعارها:** اشتعالها.

(5) الأمر الشديد.

ويخاطبُ العقلَ القصيَّ عن الهدى ... ليتوبَ من تَيهِ[1] الحياةِ ونارِها
ما أحسنَ الشِّعرَ الجميلَ إذا ارتوى ... مِن زمزمِ التقوى وفازَ بدارِها

قالَ مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ: فلما خلبَ[2] ألبابَنا بشعرِه، وأسرَ مشاعرَنا بحلاوةِ دُرِّه؛ إذ بمؤذِّنِ الفجرِ يشقُّ حُجبَ الظلامِ بنورِ أذانِه، مُعلِمًا للصباحِ بدءَ أوانِه، أما نحنُ فقلنا: ليتَ ليلتنا طالتْ، وامتدتْ لنا ساعاتُ الدجى وتوالت، فقمنا للوضوءِ واستعدّينا، وإلى المسجدِ توجّهنا فصلّينا، وودّعنا أبا حارثِ أُنسنِا وشكرناه، وإلى مجلسٍ آخرَ ألحّينا عليه ودعوناه.

(1) القصي: البعيد. تيه: ضلال.

(2) أثر في قلوبنا وفتنها.



المقامة الرثائية

روى مسلمُ بنُ عبدِ اللهِ قال: أسرتْني[1] زينةُ الدنيا وملهياتُها، وغلبتني أشغالُها وشهواتُها، فأحسستُ أني قد صرتُ جسداً بلا روح، وطفِقتْ رائحةُ القساوةِ من صدري تفوح، فلم أعدْ أشعرُ بلذةِ الطاعات، وحلاوةِ العبادات، حتى طغتْ الغشاوة على مِرآةِ الفؤاد، وأشرفتْ مصابيحُ النورِ على الأفولِ والنفاد[2]، فتذكرتُ في دياجي[3] الغم، سبيلاً يسرو[4] بها الهم، وتنقشعُ بها سحبُ الكربِ الذي قد عم[5].

فقد نمى[6] الثقات، والرواةُ الأثبات، عن النبي الأعظم، صلى الله عليه وسلم، حديثًا يحثُّ على زيارةِ المقابر؛ لأنها تذكِّرُ باليوم الآخر.

فحملتُ نفسي إلى مقبرةٍ أزورُها، لتعظَني قبورُها، فلما بلغتُ غايتي اتّبعتُ السُّنةَ في الدعاءِ للأموات، والترحمِ على أهل الأجداثِ الدارسات[7]، ووقفتُ

(1) قيدتني.

(2) الانتهاء.

(3) ليالي.

(4) ينكشف.

(5) شمل.

(6) روى.

(7) القبور التي تقادم عهدها.

هناك متأملاً في ذلك الهدوءِ الطويل، والمشهدِ الواعظِ الجليل، وهو يعظُ الزائرَ بصمتِه، ويذكِّرُه بمصيرِه وموتِه، ويناديه بلسانِ الذكرى: أيها الآتي من دارِ الغفلة، السادرُ[1] في زمنِ المهلة، هنا ستؤوبُ[2] العقولُ بعد شرودِها، وتوقنُ النفوسُ بعد جحودِها، ويستيقظُ ذوو السبات[3]، ويصحو سُكارى الغفلات، وتنطفئُ جذوةُ اللاهينَ بالمحرمات، وتغشاهم الندامةُ والحسرات، فلا تغترَّ بالسلامةِ والإمهال، والسياحةِ بين الأماني والآمال، فوراءكَ أجلٌ يكادُ أن يدركَك، وقضاءٌ على الدنيا لن يتركَك.

وبينا أنا غارقٌ في لُججِ التفكيرِ الذي يزجرُني، والمآلِ المحتومِ الذي ينتظرني، إذ رفعتُ طرفي إلى ناحيةٍ نائيةٍ في المقبرةِ الواسعة، وجوانبِها المتراميةِ الشاسعة، فأبصرتُ رجلاً قد أطال على قبرِ الوقوف، فأسرجتُ نحوَه الدلوف[4]، فلما دنوتُ إلى مكانِه من مكاني، ووقفتُ قريبًا منه حيثُ لا يراني؛ سمعتُه يناجي أحدَ الأموات، ويُسيلُ على جدثِه العبراتِ تلوَ العبرات، فكان مما قال، على تلك الحال:

السلامُ عليكَ حبيبًا ودّعناه، وصفيًّا فارقناه، وصديقًا قلّ مثيلُه، وأخًا صالحًا ندرَ عديلُه، لقد جمعتَ من مكارمِ الشيم ما تفرّقَ في سواك، وحزتَ من

---

(1) غير المبالي.

(2) سترجع.

(3) النوم.

(4) المشي.

سـموِّ الفـضائلِ مـا لا ينالُـه غيـرُ عُـلاك؛ فقـد كنـتَ جميـلَ المعاشـرة، حـسنَ المحاضرة، حلوَ المسامرة، نقيَّ السريرة، بهيَّ السِّيرة، متهدِّلَ[1] جنى الآداب، كثيرَ الإخوانِ والأحباب، قريبًا إلى القلوب، نـزرَ الهنـاتِ[2] والعيوب، تـدنو مع علوِّ مكانِك، وتتوددُ إلى جلسائِك وخلّانك، مـن يـراك يبـصر سيما الـصالحين، ومـن يجالـسُك يجـالس أحـدَ الـسالفين، تبـذلُ المعـروف، وتنجـدُ الملهـوف، وتزجي[3] الضعفاء، وتواسي البؤساء، وتتفقدُ الأصدقاء، وتحسنُ إلـى الأقـاربِ والبعداء، وكنتَ لليتامى أبًا رحيما، وللأراملِ معوانًا كريمـا، وللجهـلاءِ مرشـدا، وللمستشيرين مسدِّدا.

لقد كان نبأُ موتِك أليمـا، وفراقُك لنـا عظيمـا، فبرحيلِـك رحـل نجمٌ زاهـر، وقمرٌ باهر، وشهمٌ تشهدُ له الحياةُ بالفضل، والمواقفُ بالرأي الجزْلِ الفصل.

إنّ موتَك قـد تـركَ مكانًـا لا يُسد، وخلّـفَ فـضائلَ لا يجمعُهـا أحـد، فلـسانُ المكارمِ تَرثيك، وسـحبُ الخيـراتِ تَبكيـك، ودروبُ المحامـدِ تفتقـدُك، وسـبلُ البرِّ تبحثُ عنك ولا تجدُك، وسطورُ الكتـبِ تنعـاك، ومـدادُ الأقـلامِ يـذكرُك ولا ينـساك، وسـعادةُ الأيـامِ مـا فتئـتْ[4] تـشكرُ لـك العطـاء، وابتـساماتُ المعـروفِ مازالـتْ تلهجُ عليك بالثناء.

---

(1) متدلي.

(2) الشرور والفساد.

(3) وتسوق؛ عطفًا ورحمة.

(4) مازالت.

آهِ يا قبرُ مَن تضمُّ بينَ جنبيك، وأيُّ نورٍ قد نزلَ بين يديك، وأيُّ مزنةٍ[1] عندك كانت تسقي العافين، ويبهجُ وبْلُها[2] منازلَ الممحلين[3]، وأيُّ ضياءٍ كان يهدي السالكين، ويهتكُ ظلامَ الدياجي للسارين[4]، لقد جمعَ ترابُك جسداً بالخيرِ نديّا، وخُلُقًا كان بالفضلِ سخيّا، وكتابًا كان بالنورِ مسطورا، وروضًا كان بالطيبِ معمورا.

لقد زرتُك اليومَ إلى رمسِك[5]؛ إذْ فاتني تشييعُك في أمسِك، وأتيتُك للسلام، بعد جفولِ[6] الزحام، ومواراةِ جسدِك الطاهرِ في الرغام[7]، حتى أستطيعَ بثَّ شجوني[8]، وإسالةَ دمعِ عيوني، بحيثُ لا يرانا ناظر، ولا يشهدُنا حاضر، فيقطع تدفقَ الأشجان، ويحبس منشورَ الأحزان، ويحبس العبراتِ عن الجريان.

لا غروَ[9] فللفجيعةِ بك نارٌ تتأجج، وللقائِك أشواقٌ تتوهج، ولا يخفِّفُ

---

(1) سحابة.

(2) مطرها.

(3) المجدبين.

(4) الماشين في الليل.

(5) قبرك.

(6) مُضِي.

(7) التراب.

(8) أحزاني.

(9) لا عَجب.

الشجن[1]، ولا يطفئُ شيئًا من لوعةِ[2] الحَزَن، إلا هذا الصمتُ الذي أُسمعُك فيه صراخَ الحنين، وأنشرُ أمامَك حرقةَ الوجدِ والأنين.

ثم مكث ريثما يزوِّرُ[3] قولاً ينشدُه، وعلى نجيّه يُلقيه ويُردِدُه، فقال بعد ذلك:

يا من رحلتَ عنِ النواظرِ لم تزلْ ... ذِكراكَ في كلِّ القلوبِ سحابَها
تَهمي عليها حينَ تُجدِبُ أرضُها ... فتزيلُ بالغيثِ الهنيْ أوصابَها[4]
ودّعتَنا وتركتَ خلفَك أنفسًا ... دونَ المصائبِ قد غدوتَ مُصابَها
تبكيكَ بالحُزنِ العميقِ قلوبُها ... ويكادُ نأيُك[5] أن يكونَ ذهابَها
تبكيكَ نفسًا قد رأتْ إحسانَها ... ورأتْ على هامِ العلا آدابَها
تبكيك نفسًا قد سمتْ أخلاقُها ... نشرتْ على أرجائِنا أطيابَها
تبكيك نفسًا ترتقي بخلالِها ... وتُنيلُ من كرمِ النّدى[6] أصحابَها
لك في النفوسِ منازلٌ معمورةٌ ... نسيتْ لحبِّك في الأسى[7] أحبابَها

(1) الحزن.

(2) حرقة.

(3) يهيئ ويتقن.

(4) **تهمي**: تسيل. **تجدب**: تقحط. **أوصابها**: أوجاعها وأمراضها.

(5) بُعدُك. أي: موتك..

(6) المعروف والسخاء.

(7) الحزن.

هـذي الـدموعُ تبـوحُ بالحـبِّ الـذي ... غمـرَ الفـؤادَ فلـم يلُـمْ تَـسْكَابها

فعليـكِ أمـزانُ[1] الـسلامِ تـصبَّبتْ ... يـا نفـسُ طهّـرَ ذو الجـلالِ ترابَهـا

ثم إنه قطع إنشادَه بالرثاء والثناء، ورفع يديه بالتضرع والدعاء، **فقال:**

اللهم أنزل على حبيبي شآبيب رحمتك، واشملْه بعفوِك ومغفرتِك، وأسبغْ عليه واسعَ فضلِك، وأحسنْ إليه بجليلِ نُزلِك، وأبدلْه داراً خيراً من دارِه، وجاراً خيراً من جارِه، واجعلْ قبرَه روضةً من روضاتِ الجنانِ، ولا تجعلْه حفرةً من حفرِ النيران.

اللهم إنه قد نزلَ إلى حفرتِه، فقيراً إلى رحمةِ ربِّه ومغفرتِه، يرجو خيرَك، ولا يؤمِّلُ غيرَك، فلا تحرمْه -ربَّنا- كرمَ النوال[2]، وبلوغَ الآمال، وحسنَ الجوابِ عند السؤال.

اللهم اسكبْ عليه في قبرِه وابلَ العفوِ الغزير، ووافرَ السعدِ الشاملِ الكبير، ووسِّعَ له قبرَه، وتولّ برحمتِك أمرَه.

اللهم إنه قد كان يفضلُ على عبادِك فأفضلْ بمنِّك عليه، ويحسنُ إليهم فأحسنْ بفضلِك إليه، ويدعوهم إلى طاعتِك، ويغريهم بعبادتِك، راجيًا بذلك رضوانَك، وآملاً بسعيه غفرانَك، فلا تردّ-يا مجيبُ-هذا الدعاء؛ فأنت السميعُ ذو الغنى والعطاء، وأنت المنّانُ المعبود، والكريمُ ذو الفضلِ والجود.

---

(1) سُحب.

(2) العطاء.

قال الراوي: وكنتُ لما سمعتُ صوتَه ودعاه، وحدّقتُ بالنظرِ إلى مرآه؛ أدركتُ أنه أبو الحارث حقا، والقولُ قولُه صدقا، لكنني كرهتُ قطعَ وصلِ آهاتِه، وحبسَ منهمرِ عبراتِه، وتحدرِ سيلِ بيانِه وكلماتِه.

فلما انتهى من وقوفِه، وبذلِ ما استطاعَ لصديقِه من معروفِه، سلّمَ عليّ واستأذنني، ولوى وجهَه عنّي وودّعني، وقد عذرتُه لفرطِ حزنِه، وتصببِ دمعِ عينِه، ووعدتُ نفسي بسؤالِه عن صديقِه الحميم، الذي جللّه[1] فراقُه بهذا الكمدِ[2] العميم[3].

---

(1) غطاه.

(2) الحزن.

(3) الشامل.



فهرس المحتويات

عناقيد البيان

مقامات أدبية

تأليف

د. عبدالله بن عبده العواضي

